كورال الدُّمَى

نهى الطَّرانِيسي

دار البشير للثقافة والعلوم



اسم الكتاب: كورال الدُّمَى

التأليف: نهى الطَّرانيسي

موضوع الكتاب: مجموعة قصصية

عدد الصفحات: 136 صفحة

عدد الملازم: 8.5 ملازم

مقاس الكتاب: 14x20

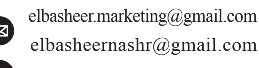
عدد الطبعات: الطبعة الأولى

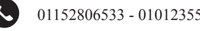
رقم الإيداع: 2017 / 28584

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 675 - 6



دار البشير للثقافة والعلوم







إهـداء

إلى مَنْ آمَنا بي منذ أنْ عرَفتُ الإمساك بالقلم:

أبي وأمي

إلى صديقي وزوجي .. رفيق درب الإبداع:

د. محروس بُرِيّك

إلى الأدباء الصغار:

ريم ومحمد وعبد الرحمن


أشجار الأشباح

(تحامَلْ.. أكاد أنتهي ....!!

أُعطيه المسكِّن.. وآتي بالباقي في غرفة الطوارئ)

مع تخبط العرَبات، ووَقْع الأقدام المتتالية المهرولة، يرافقها صراخ وألم، وآهات ارتعاش الأجساد فوق الأسِرّة متمسكةً بنفَس واهِنٍ باقٍ، قبل أن تفارقها أرواحهم إلى السماء.. تَضجّ المصابيح من أهوالٍ تلك الـمَشاهِد المكررة.. يخفُتُ نورُها مع ازدحام الغرفة بالجرحَى.

إنها الحرب.. لا أعرف أية حرب أو ما مسماها، كثُرت الحروب حتى إننا لم نعد نتذكر أسماءها، يسمونها الحرب العالمية الثالثة، سنظل هكذا حتى نصل إلى حرب نعجز عن تسميتها من بشاعة مخلفاتها، وما الحرب إلا دماءٌ تحاصر مُدنـًا كأشباحٍ تأبى واقعَها وما آلت إليه.

أسير في طرقات الـمَشْفَى فأرى آثار الدماء على الجدران والأسِرّة. الآهات والأنين لا ينتهي، كلُّهم ينظر إليّ وكأني أحمل معي إكسير الَحياة أو الترياق الذي سيعيد الأمل إلى قلوبهم والطمأنينة إلى نفوسهم، فتصح أبدانهم، وتذهب عن عقولهم ذكرى مواجهة الموت.

بعد حينٍ يرقد أولئك الجنود كالأطفال الحالمة، فلا يتمنى أحد النظر إلى وجوههم، ولكن عملي يحتم علي الاطمئنان عليهم بين آنٍ وآخر.

فاجأني رؤية أحدهم يشبه أحد أصدقائي، اقتربت منه.. تيقنت من هويته، إنه (جاك).. صديق جاء من هناك .. ليحارب!!

_ جاك هل تتذكرني ؟

نظر إلي بعينه الصحيحة، بعد فَيْنَة من التركيز والصمت ...

_ مَن؟!.. ليزا؟ أهذه أنت يا ليزا؟

_ جيد.. عرفتَني ! كيف حالك ؟

_ ماذا تتوقعين؟! ها أنا فقدت إحدى عينيّ!! حالي أنتِ أعلم به مني.

_ ماذا حدث؟

_ انفجارات واغتيالات.. وعلى هذه الحال حتى يقضوا علينا.

_ إن الازدراء والقمع يُولِّدان الانفجار.

نظر إليَّ نظرة ثاقبة وكأني طعنته بخنجر صَدِئٍ:

_ ماذا تقصدين ؟!

_ ما نهاية ما يحدث؟ أجئنا من بلادنا لنعيش في بلد آخر تحت

مسمى تثقيف الناس وتعليمهم أسس الحياة والديموقراطية، وكأنهم أطفال، ونحن أوصياء عليهم؟! لمَ ؟! ألا نكتفي أن نرشدهم من بعيد، لنجعلهم يخطون خطواتهم الأولى َحتى يستقيموا على الطريق.

ـ ولمَ نجعلهم يتخبطون ونحن نستطيع مساعدتهم؟

ـ كيف؟ دُلَّني.. كيف؟ بالاعتقالات.. والقتل.. والشوارعِ المكدسة بالعربات ودموع الأطفال.. بالنساء يلاحقنَ رجالهن وهم مُكَـبَّلون؟! كيف إذن نعلم مبادئ السلوك الصحيح ونحن بدأنا معهم بالسلوك البدائي ؟! كأنهم حيوانات نأخذهم فنرميهم بالأقفاص، ونلومهم على تلك الانفجارات.

ـ ماذا تقولين؟ إن قيمنا ومبادئنا تقوم على الحرية، جئنا بعد ما خلصناهم من الإرهاب اللعين، وسنساعدهم كيف يبنون دولة قوية.

ـ قوية ؟!.. لا تُضحِكني أرجوك... انظر إلى الدمار من حولك!! بربِّك كيف لدولة أن تصبح قوية بعد كل هذا الدمار؟!.. أم أنك تقصد أننا سنظل هنا لمئات السنين حتى تستجمع هذه الدولة أنقاضها وتصبح قوية!!.. إن بقينا أحياء !

ـ أرجوكِ دعينا من الدخول في تلك المجالات، أنا تعِبٌ وأريد أن أنام.

_ آسفة جاك، أرجوك سامحني! أريد فقط الرجوع إلى حياتي، لكن ذلك أصبح الآن مستحيلاً.

_ مستحيلاً ؟! كيف؟! ألم تتم خطبتك لمارك؟

_ نعم، فرِحْتُ ووَدِدْتُ معانقة الطيور والأزهار، وددت أن أهمس للقمر ليلا، لكني تركته قبل مجيئي إلى هنا.

_ لمَ ؟! أتعتقدين أن تطول إقامتك هنا ؟!.. لا طبعا ... لا تخافي.

_ ليس هذا..جاك، لكني خشِيتُ على مارك وأولادي الذين سأنجبهم، سأزرع في نفوسهم جميعا بذرة الخوف والقلق والمعاداة، ليواجهوا من غرسنا في نفوسهم بذرة الخوف والألم.

_ أرجوك ليزا، لا تخلطي الأمور، تعلمين جيدا أن هناك فرقًا، فقد رأيتِ بعينيك الإرهاب هنا.

_ أتعرف يا جاك ما هو الإرهاب؟.. هو أن تغرس ألـماً وحقدًا في نفس ضعيفة لا تقدر على شيء، وتثقل عليها من قسوتك، أعرفتَ الآن من الإرهابي الحق؟

ألا ترى يا جاك أنه من السخافة أن نحارب وحشًا خلقناه بأيدينا، وأطلقنا عليه مسمى الإرهاب، ليس هذا فحسب، بل أشركنا أولادَنا

وعوائلَنا في تلك المواجهة. أعرفت الآن لمَ عزفتُ عن الزواج وإنجاب الأطفال؟!

دمعت عينا جاك شفقةً بحالي، حتى إنه لم يستطع الكلام، فجفف دموعي وطبع قبلة على جبهتي وكأنه طلب الصَّفْح عمّا تقترفه أيدينا.

جلست بجوار النافذة، عُدتُ إلى لوحة صغيرة أرسمها على فترات، ولمَّا تكتمل، أشاهد ضباب النيران ينسحب رويدا رويدا، أرى الأرض السوداء والسماء الضبابية، لا أدري إلى متى سنظل هكذا ؟ ومن نلوم؟! سادَتَنا لأوامرهم؟! أم أنفسَنا لطاعتهم؟!

كل ما أستطيع فعله هو أخذ القلم ورسم الجنة التي أتمنى الرجوع إليها، حتى وإن أبَتْ شمس الصباح أن تظهر لتغذي أعيننا بنور الأمل!!



العين لا تبصر الأهداب

من لوحة أرجوانية اللون بدأ يتسلل من أطرافها خيوط برتقالية صفراء مخترقة الغمامات القطنية، ومعلنة بدْءَ أخذِ نفس عميق، وتجرع كأس الندى المنعش، يظهر مسرعًا قرصُ الشمس الملتهب، واقعيا أكثر بحرارته ودفئه للحياة.

من هنا فتحت عيني لأعيد كَرَّة ألمي مع الحياة، بأعمدة متراصة صلبة باردة سلطت جبروتها علي، وحفنة طعام بجانبها بضع قطرات مياه، بنفس المكان الذي به فضلاتي أعيش، يُطلب مني التنفس والهدوء والاستسلام، حتى أشبع شغف السيدة؛ كي تراني كل يوم، وتسعد بألوان ريشي الزاهية، وتطرق بجوار قفصي لأغرد لها، وما أغرد إلا خوفا وألما، فتطرب آذانها، وتعد طعامها لترحل عني ..

أتابع ظلمة نفسي وحياتي الحالية .. أتنهد... أتنهد لعلي أحاول الهدوء والسيطرة على كآبة نفسي ... أبصره من بعيد يحدّق بي بعينيه اللوزيتين متأهبا للهجوم، حتى إذا ما وضعت السيدة طبق الحليب، وطبقًا آخر يحوي قطع طعام – يعدل عن قراره، ويأخذ يمشي بخيلاء مقززة، يتبعها

بحركات لا يفسَّر مغزاها إلا بإعلان عدائه لي. ذاك هو القط، وهذا هو حكمه الذي نصبه أمام عينيه لتنفيذه علي.

القط: (ما بالك أيها المغرد، لِمَ تبدو حزينا؟)

(أليس أمامك طعام وشراب وفوق هذا بيت جميل؟!)

المغرد: (أتسمي هذا بيتًا؟! بيتي هو السماء بقبتها الواسعة التي لا حدود لها، هكذا يكون بيتي)

القط: (دائما وأبدا تبدأ شكواك الملعونة هذه، لقد أجلستني السيدة هنا لأراقبك فأنت كثير الضجيج والحركة، وهذا مزعج لها ولي).

المغرد: (هذا قفص...أختنق هنا.... أريد الطيران، أريد أن أسبح بين طيات السحاب لأغرد....)

القط مقاطعا: (كُفَّ عن كل هذا، إن عدت للضجيج والاعتراض ثانية سأتولى الأمر معك)

وثب القط فوق القفص، وأخذ يضربه ويقذفه يمينا وشمالا، حتى تناثر الماء، ليغطي المغرد، وتعلقت بين ريشه حبوب الطعام، وهو يقف على أرض داكنة اللون سائلة كريهة الرائحة.

القط: (سأتركك الآن أيها الناعب؛ لأرتاح قليلا بعد الوجبة المشبعة).

أطال المغرد النظر بيأس إلى النافذة المجاورة، فأدركت أذنه صوت خشخشة قادمة من أسفل الباب، إنها الخنافس السوداء تأتي دائما من الباحة المجاورة للمنزل.

المغرد: (أنت...أيتها الخنافس انظري إلى لأعلى)

أخذت الخنافس تخشخش بقشورها، لا تعرف مصدر الصوت، حتى نظرت للأعلى:

(كيف حالك أيها المغرد ؟)

المغرد: (لست بخير، أرجوك أطلب منكنّ المساعدة)

الخنافس: (مساعدة !! كيف؟! نحن مجرد خنافس!!)

المغرد: (كيف؟! أنتم كثير، وقشوركن سميكة كيتينية ليس من السهل تحطيمها، ولكُنَّ فكّ يقرض جيدا، ومنكنّ يتأفف ويبتعد ذلك القط اللعين، أرجوكنّ ساعدنني للنجاة)

الخنافس: (كنا نود أيها المغرد، ما نحن إلا خنافس كبيرة العمر، نسعى فقط للغذاء ونعود للباحة المجاورة لكم.)

أنهت الخنافس حديثها متأهبة لإتمام مهمتها في المنزل، ولم تعد متذكرة طلب المغرد.

أخذ المغرد ينفض ريشه، يقف عاليا بعيدا عن أرض القفص الكريهة، وفي خضم انشغاله بذلك، رأى أمامه وجه القط ملاصقًا للقفص.

القط: (أراك استوعبت الدرس أيها المغرد، فاليوم أنت هادئ، وأنا استمتعت بقيلولتي)

المغرد: (ماذا تريد أيها القط ؟)

القط: (أنا أفعل ما أريده الآن، أنظر إليك، أتلذذ بجمال ريشك الرطب، أستمتع ببحثك عن حبة طعام تصلح للأكل، وبعينيك الحائرتين المتنقلتين في الفضاء، وبوجهي الجميل)

عند الشباك وصل سرب صغير من اليمام المحلق؛ ليلتقط بعض الحبوب المهملة من الباحات الخارجية.

هنا أخذ المغرد يغرد بأعلى صوته مستغيثا مرفرفا بجناحيه (أيها اليمام...أيها اليمام .. أنا هنا... انظروا إلي)

توقف انهماك اليمام بالطعام، طار مسرعا، ولم يلتفت للمغرد.

المغرد: (كلا أيها اليمام... أنا منكم... من جنسكم)

(لا تتركوني .. يا لكم من جبناء...يا لكم من جبناء)

القط ساخرا: (يا حسرتاه عليك أيها المغرد!! لَمَ تحزن يا عزيزي ولَمَ تتعجب من فرارهم، إنهم جبناء، من ذرة صوت يفزعون ويهربون، ولكني أحبهم)

المغرد: (ماذا تقصد ؟)

القط: (ما أقصده يا عزيزي، دعك من التغريد طلبا للنجاة، فإنهم لا يرجون منك فائدة، وهيئْ نفسك للعيش هنا تحت إمرتي)

أقبلت السيدة من الخارج، هرع القط يداعب أرجلها، فتحت الباب الخلفي لدخول الخادمات، وعادت هي لمزاولة أعمالها غير المفهومة، حاملةً القط معها.

لم تلقِ حتى نظرة عليَّ لترى كيف صار حالي ؟!

حاولتُ أن أغفو من تعبي، فوصل إلى أذني صوت النقيق، لم تخطئ أذناي لمن هذا الصوت، اقتربت من أطراف القفص، نعم هو الضفدع اللزج الأخضر السمين.

المغرد: (ماذا أتى بك هنا أيها الضفدع ؟)

الضفدع مبتسما: (رأيت أن أساعد الخادمات بتنظيف المنزل .. ألم ترَ أي حشرات تسري هنا ؟)

المغرد: (لا يهمك إلا نفسك أيها الضفدع، ألا تكترث لأمري وحالي السجينة، لقد نسي جناحاي الطيران، وفقدت القدرة على التغريد بحب، بعد أن امتلأت نفسي بالألم .. إن حالي يرثى لها، ساعدني أيها الضفدع)

الضفدع مضطربا: (كم أود أيها المغرد، ولكن دعني أساعدك على تبصُّر الأمور، هنا مكان جميل، طعامك وشرابك محضر، وبيت آمن

بعيد عن الطيور الجارحة أو الصيادين، ويحرسك قط، لِمَ لا ترى الجانب الإيجابي للحياة؟!)

المغرد: (أتعلم؟ .. لا رجاء منك، ستظل هكذا تأخذ في النقيق ليرضى عنك القط ولا يلتهمك)

الضفدع خائفا: (اخفض صوتك أيها المغرد، دع القط في غفوته، أدام الله عليه هذه الغفوة إلى الأبد)

المغرد: (ما دمت تكرهه، لِمَ لا تساعدني في النجاة والهروب؟!)

الضفدع: (لا أستطيع أيها المغرد، أرجوك أدرك كلامي، وفكر به، وستعلم أنه الأفضل لك)

من النافذة راقب الحوارَ الحكيمُ، فانتبه له الضفدع.

الضفدع: (ها قد أتى لك حكيم الحيوانات، دعني أذهب للبحث عن طعامي)

اتسعت حدقتا المغرد، وانتفض ريشه لرؤية الحكيم (الهدهد).

المغرد: (تعبت أيها الحكيم .. تعبت .. لعل لي عندك ردًّا شافيًا لأوجاعي؟)

الحكيم: (لِمَ أجهدتَ نفسك طوال الوقت، والحل أمامك؟!)

المغرد: (كيف؟!)

الحكيم: (أليس للمنزل باحة خاصة به ؟)

المغرد: (بلى !)

الحكيم: (وتعج بشتى الكائنات، أليس كذلك ؟)

المغرد: (بلى !)

الحكيم: (هم مبتغاك أيها المغرد...

ابحث داخل باحة منزلكم، وجه ناظريك إليها

فمبتغاك فيهم، وليس في الباحات المجاورة)




حين لا ينفع الوصل

رأيتك من شرفتي منذ اليوم الأول، تأملتك وكأنك تمثال، وكلما كبرت زادت لهفتي لأن أراك عن قرب، كي أرى تغير الطبيعة في عينيك كيف اتسعت، ووجنتيك كيف استدارت، وشعرك من شعر قصير إلى أن رسم لنفسه لوحة فنان.

حتى إذا تجاوز العشرين وصلت نبتة الحب إلى حصادها، ولكن لهفتي إليه تكمن في حبي لقوة شخصيته وسمرته وأدبه، كنت كلما رأيته من شُرفتي يستذكر ويأتي ويذهب ويصلي في خشوع أتمنى لو أني من يدخل الغرفة حاملة كوب الشاي الساخن ووجبة خفيفة. كم فرحت لأنه عمِل مع والده.

ظللت أحبك في صمت، أخلص لك وكأن الوعود قد قطعناها معا، ولكني من قطع الوعد بمفردي... حتى رأيتك تُزَفّ إلى عروسك، فسقطت من فوري، ولم أفق إلا على اللون الأبيض، ظننت أنني قد انتقلت إلى السماء، لكن اللون الأبيض كان قاتما مبللا بالكآبة.

اكتشف الأطباء أني مصابة بمرض لا يرجى منه شفاء، جلستُ هادئة أرى انهيار أبي وأمي.. أيقنت حينها أن حبي كان الأمل الوحيد الذي أبقاني أقاوم ذلك المرض وأعيش حتى الآن، لقد سقطتُ عندما رحل الأمل، وكأن النفَس قد توقف فجأة.

ظللت متماسكة أنظر من شرفتي.. أتذكر كل كلمة كتبتها عنك في مذكراتي، كل لحظة فرح وحزن مرت عليك، كنت أعيشها معك من بعيد من شُرفتي، أردت أن أكون زوجتك والحبيبة والصديقة، ولكني رضيت الآن بصمتي، وذكرياتي الباقية، ازددت شحوبا ومرضا، هي خطوات أطأ عليها لأقترب من نفسي الأخير.

الشيء الوحيد الذي لم يشحب هو عيني عندما أرى صورتك وأقرأ مذكراتي... وإذا بأحد يطرق الباب فيدخل هو!! لا يعقل كيف هذا؟ أهي النفثات الأخيرة وعدم الوعي؟ كيف؟!! إنني أسمع صوته، إنه يقترب رويدا رويدا ليجلس بجانبي.

تملكتني الدهشة حتى مددت يدي لأسلم عليه، كي أتأكد من دفء يده وبرودة يدي. تناول المذكرات التي كانت بجانبي، وسقطت الصورة لينظر إلي نظرة خجلت منها، وكأني رجعت صبية لم تخدش منها الدنيا شيئا.

سألني لماذا الصمت؟ ، فصمتُّ في ذهول. أكان من الممكن أن نعيش معا ولا نقطع الأمل أبدا. ؟! نظرت إلى وجهه الأسمر..

- لِمَ لا تشعر أنت؟! إنه النصيب .. فلولا أمي ما عرفت. ولكن كيف حال زوجك؟

- تركتني وهجرتني إلى حب قديم، فلم أشأ إرغامها، بل سعدت لأنها شعرت يوما بالحب.

أتأتي تعاود وصل الأمل.. يا ترى هل أتيت متأخرا لأنني أشعر بوصول الخطوة الأخيرة إلى منتهاها، ولكني سعيدة لأنها اللحظة التي انتظرتها كثيرا، لتمنحني شعور الحب والأمل، سأرحل وأنا راضية، وكأني عشت معك حياة لم أتوقع أن أعيش مثلها.

بكى .. تعجبت من أنه لم يعرفني، لكنني تأكدت أنه يحبني. تشبَّثتُ بيده، فنظر إلي وكأنه يقول: لا تستسلمي، لا تتركيني وترحلي. فأجابته يدي، وذرف دموعه حتى لفظتُ أنفاسي كما تمنيت، ويدي بين راحتيه، بكى بجانبي وبدأ يجفف دموعي بعد أن لفظت أنفاسي الباردة، ليخرج حزينا لأنه لم يجرب الحب قط، وعندما أحس بالحب يتسلل إلى نفسه ذهب وتركه جريحا، وسعد بشيء واحد هو لمس يدي البكر، ومسحه دموعي من فوق وجنتي الباردة، وبلل بها منديلا يحتفظ به دائما بجانب قلبه.

والآن ينظر من الشرفة وكأنه استلم الأمور من بعدي.. عسى أن يجد الحب كما وجدته.. ينظر دائما إلى شرفتي ليرى كيف كنت أنظر إليه، ويقرأ المذكرات ليصل إلى كلمة (كم أحبك).. ينظر إلى شرفتي فتبكي عيناه في صمت.



عندما يُزهر الأمل

ها أنا أكتب إليك مجددًا على أمل أن نلتقي يومًا، لا ندري متى ولا أين، أناجيك حين يغمر الليل بظلمته أرجاء الحياة، أذكرك عندما تشرق الشمس في الصباح، وعندما تغيب خلف الشفق الأحمر في المساء، أذكرك.. ولا أنساك أبدًا ما حييت، وهل ينسى المرء نفسه وقلبه الذي يخفق بين جنبيه؟! أنت في عقلي وقلبي، أنت كل كياني. أذكر إذ التقينا عند الشرفة، عندما صرّحتَ لي بكلمات الحب والإخلاص.. مشينا.. أمسكتَ بيدي كأني طفلة تخشى عليها أن تتوه في دروب الحياة.. ضممتني خوفًا عليّ من أشباح كانت تلاحقني، لم أدرِ بنفسي، ولم يدرِ قلبي بي؛ فتركني لحظتها، وكأن فؤادي قد عَثَر على ما كان يرنو إليه، كم صارعتُ قلبي لكن دون جدوى.. لقد استسلمتُ للحب!!

بدأت حياتي بفستاني الأبيض كالنجمة اللامعة تضيء للآخرين.. لكن بارتدائك الأبيض انطفأت شمعتي، ذبل قلبي، ماتت ورود العهد على الشرفة الخضراء. لَكَمْ كرهتُ أن ترتديه قبلي، تركتَني شريدة لا تضل الدموع أبدًا طريقها إلى قلبي.. وحيدة أبكي.. أناجي السماء. صبرًا قلبي ! ارأفْ بحالي، أعلم أنك تصرخ، تصرخ حتى البكاء،

صوتك عالٍ لكن لا يسمعك سواي، صبرًا أيها القلب! فعقلي يذكرني به، وأنت تذكرني به، ولمسات الحياة على جسدي تذكرني به، كل شيء يذكرني به.. كفى.. كفى..!!

تعبتُ.. أتمنى لو أصبحت صخرة صماء متبلدة المشاعر، فأنساك، وأنسى نفسي. أنت من كان يُحيي الحياة في عيني، كنت تمتلك السر، ودفن معك، ولا أحد سواك يستطيع معرفته بعد الآن.. ذهبتَ وتركتني، انهالت عليك الرمال، وودعتك الحشود، ثم رحلوا رويدًا رويدًا، اختفوا، ولم يبق إلا رَجْع الصدى؛ لكنني ما زلت أراك أمامي، تقترب فتمسح دموعي المُترقرقة، ها أنذا أكاد ألمسك.. لماذا تختفي أيها الطيف الجميل، لماذا؟! روحي تكاد تزهق خلفك، بحق الحب لا ترحل.. أراك من بعيد تؤنس وحدتي، لا تختفِ.. وظَلَّ هنا بجانبي.

حملتُ معي حفنة رمال من بيتك الجديد، وأسكنتُها بجانبي على وسادتك لعلها نبوءة بقرب رحيلي إليك، لعلها تبدد من نحيب قلبي. خرجت أناجي الله، لك الحكمة يا إلهي.. يا سيدي.. أنا لا علم لي بكُنْهِها، فامنحني الصبر!

نظرتُ إلى السماء فإذا النجوم تتلألأ كأنها في ليلة عرس، وإذا القمر يعزف أعذب لحنٍ.. خَفَتَ صوت الموسيقى، وتسللت خيوط النور

رويدًا رويدًا، وأخذت تُهدي إليّ الحياةُ هواءَ الوليد، تنفسته حتى امتلأ صدري.. لقد أدركتُ معنى الحياة والإيمان... قمرٌ يضحك، ونجوم تتراكضُ وترقص في مرح..

ذهبوا ولن يعودوا

لم تبكِ السماء، بل بعثت بنفحة الأمل!!



أخف من حَبّة رمل

تحت أشعة الشمس الحارقة نهرول بخطى مبعثرة فوق الحصى والرمال، لا تضل تلك الخطى طريقها، لعلها تعثر على كِسرة خبز أو حبة شعير أو لقمة ضلت الطريق إلى فم، نحملها فوق رؤوسنا ونظل نبحث حتى تحِينُ العودة إلى الكوخ! منّا من فاز بالفتات لأولاده، ومنا من ينتظر رأفة الآخرين. يُطمس الكوخ، تسوى به الأرض، يتحول إلى قبر كبير لا ينقصه سوى حَجر يدلّ السالكين عليه، لا ندري إن كان خطأ بناء الكوخ هنا، أم أن الخطأ خطأ غرور أصحاب القدم الكبيرة، ولهوهم وعدم مبالاتهم...

كدنا نضل الطريق، كدنا نجهل مكان كوخنا الوحيد، تعرفنا عليه من رائحة الجوع الذي تحول إلى هلع.. الصرخات تنداح في الفضاء.. يخفت صوتها رويدًا رويدًا.. تتلاشى.. لقد أتينا بعد فوات الأوان!! خرجنا من أجلهم، وعدنا لنودعهم في قبرهم الكبير.. لا ينقصه سوى حجر يرشد إليه!!

تابعنا السير.. نخشى.. نخشى حتى أن تسقط قطرات من جراح قلوبنا، فنضعف ونسعى إلى أرض نطلب من الله أن تسعنا وتحمينا من أصحاب القلوب الصماء..

تدافعت الأيدي لبناء الـجُحر الضيق الصغير، لم يبقَ منا إلا قليل.. حتى انتهينا، كلّ منا آوى إلى رُكنه، وأفضى بسرّه، وأطلق العنان لآهات القلب والدموع، والجحر لا يشبع، كأنه حضن الأم، لا يشبع، ولا يملّ الإنصات!

غلبَنا النُّعاس، وكلامُنا خُطّ على وجهه مجرى البكاء. أفقنا على صراخ من الجحور المجاورة، لنرى سيلاً من مياه أعيننا قد تحوّل إلى غُولِ فيضانٍ لا يأتي بخير ولا هو بعذب سلسبيل! نتلقى ضرباته المفزعة، تصارع الحياة فينا الموت.. يرفعنا جميعا إلى مكان قصيٍّ، من استسلم منا، ومن بقيت له أنفاس ممزوجة بالمرارة، وآخرون ينظرون من بعيد، يضربون كفًّا بكفٍّ...

شكرًا لكم، طاب مسعاكم!!

يدركهم في الطريق هواء السم المميت، كأنه كلاليب ألقيت فوق أعناقهم، أُسلموا واستسلموا، لا كوخَ، ولا جُحرَ! ذهبوا وارتاحوا من عبث البحث عن الفتات الذي لو وجدوه لكانَ أخفّ من حبة رمل!!


إكسير الحياة

رأيت الخطوط تأتي وتذهب، لا أملَ ولا مجيبَ، فقط أجرجر ساقَيَّ بخطوات ثقيلة، فإذا بها تمضي ولا ترجع، ماذا أفعل سوى المضيّ، وانتظار انتظام الخطوط، وعودة الأمل المفقود؛ ليأتي من بعيد بنظرة بَاهتة شاحبة فاقدة الإحساس والدفء، ما أشبعتني ولا أدفأت برودة ألمي، لا أعلم كيف استمر ولا كيف سيستمر هذا الحال؟! أسير بمفردي، لا أعلم أين أغدو بوحدتي، لعلي أجد أملي ودفئي، فألتقط الحب والعطف من نظرات الناس.. مَسكَنٌ فقط يؤويني حتى أجد إكسير الحياة، فلكل منا إكسيره الخاص في هذه الحياة.

أخذتني قدماي إلى شاطئ البحر، جلستُ فوق رماله المبللة، كانت ترحّب بالزائرين والقادمين، تلتصق بهم وكأنها تخبرهم: لن أترككم.. لن تغادروني وأنتم في حزن هكذا.

نظرت إليك يا بحر لعلي أجد الجواب منك مع ضربات أمواجك المتتالية الغاضبة، وكأنك تكتم سرًا مؤلـمًا لم تعد تقدر على تحمله، فأرسلتَ أكفَّك تصُكُّ السدود بأصواتها الهائجة، لعلها تُشعر الناسَ بما في داخلك.

عجبت من الناس التي تأتي إلى البحر لتستريح، وتفيض بأحزانها، لكن لِمَ العجب؟! وبداخلنا أيضا مَدٌّ بحرٍ غاضبٍ نلدُه بهدوء وصمتٍ ميّتٍ، نُهديه إليك، ليغذيك، وما تغذيت إلا على سموم وأحزان!! فصرتَ أسدًا هَصُورًا، أصبحتُ أخشاك يا بحر، لم أعد آمنُك على غيري ولا عليّ؛ فمن أتاك هربًا من المصاعب والآلام، ابتلعته ولفظته جامدًا يابسًا تعلوه زُرقتُك التي ختمتَ بها على جسده.

ما اكتفيتَ يا بحر، كضباعٍ مليئة بالغدر والجبن، تأكل الفريسة الجاحظة العينين، رمَقُها الأخيرٌ يسيل من شفتيها، يصارع نبضاتِ قلبها المتشبث بالحياة، وما رحمتَها، فخَارَت قُواها أمام الغدر والخيانة، لستَ ملجئي يا بحر كي أهمس إليك بما بداخلي.

السماء من الأفق البعيد مع ملتقى البحر تغمز لي: أنا ملجؤك هدّئ من رَوعك، وأزِحْ الهمَّ عن فؤادك .. احكِ واسرد.

رأيت السماء زرقاء، والسحاب يطوف بين أرجائها بسرعة كسرعة الطائفين بالبيت العتيق، يا إلهي ما لهذه الأمور أصبحت مؤلمة لها ولنا.

ما اعتدنا أن تكون الشمس حارقة تميت الآلاف، تقضي على الأخضر واليابس، وتميت القطرة في جوف الأرض، تشقِّقُ وجهَ المرتجي لندىً يحيي الدماء في معدته الخاوية.

قفزتُ من مكاني هرَبًا، خشِيتُ أن تتملكني أشباحُ أفكاري بعد أن أفشَيتُ بسرها، فتقوم بإلقاء أقصى العقوبة علي، فأموت بأي وسيلة، ويوضع على قبري زهر نما من الدموع والدماء المتجلدة، فازداد ذاك الزهر حمرة، وازداد ألمًا تكاد ترى الندى يقطر من سيقانه عند قطافها.

يا الله !! يا إلهي !! تغيرَت قوانين الطبيعة، لم يعد البحر كما هو، ولا السماء صفحةً هادئة نرسل إليها ابتسامات الأمل والحب، وكادت الأرض تصرخ، وتضج من كثرة ما أُلقيَ عليها، و كثرة الناشبين فيها...

كله بأيدينا، ما نبرئ أنفسنا !!



إكليل من البنفسج
على قبر مجهول

كبحث الوحوش الضارية عن فريستها تشتَمُّ رائحتها، نبدأ يومنا مثل النسور آكلة الجيف، نلاحقها بصندوق أسود قاتم، يثقل الكاهل، يلازمنا، حتى تآلفنا. أذهب به أنَّى اتجهت.. أهرول.. ما لي غيره، فهو عيناي.. ألتقط مشاهد ولقطات أبعث بها لوكالات إخبارية بسبق أمتاز به.. رافقني لعشرات السنوات.

تنقلت كثيرا في حياتي، وهذه المرة إلى بلدة منكوبة.. كانتْ كالمرأة الشابة الجميلة افتتن بها الناس، وما روت ظمأ أحد، لينتقم أحدهم بسكب المياه الحارقة على وجهها الحسن لتصير امرأة مشوهة دميمة.

بلد صار مشوها مقطعا متناثر الأجزاء، لا تعرف أين تغدو فيه ولا إلى أين تروح.

دائما نحذر من الصمت؛ فكثير من الصمت تتبعه العاصفة، لنرى فوهة البركان أعلنت عن غضبها طاردة أشلاء ومباني، تنفث نارا إيذانا بنهاية العالم.

السماء اتشحت بالسواد كالثكلى التي فقدت أطفالا كانت ترعاهم تحت جناحيها، وكأننا في احتفال ضخم لتتطاير الصواريخ النارية على شرف الشرير.

لا يكفي أبدا وضع اليد على الأذن عسى أن يختفي الصوت للحظات، ولا إغماض عيني لأنسى مشهد انطلاقة الموت صوب بيت رأيت قاطنيه للتوّ؛ رضيع يشتكي الجوع، مسن لازَمَ الحصير على الأرض يدعو الله بالفرج القريب، وأطفال جلسوا خائفين بعد فقد الأم في رحلة البحث عن الماء، غضبه وسرعته لم تمهلهم للحظة واحدة، تدك البيوت التي لم تكن سوى جدران ورقية لا تنفع... لا تجدي.

وبدأ عملنا ليستقر الصندوق عند فتاة اختلط شعرها بالرمال المتطايرة فأصبحت وكأنها قد شابت فجأة، دموع لا تفارق وجنتيها اللتين فقدتا نضارة الصِّبا، شفتان تصرخان بارتعاد على أمها، تجلس الفتاة منتظرة خروجها من تحت الأنقاض، لعلها ما زالت على قيد الحياة. خطوتُ لأصورها لعلي أكسب ودها وأقنعها بالعدول عن رأيها الصارم.

ما غيرت وجهها، ظل شاردًا حزينًا ينظر في كل الأرجاء، لعلها ترى أمها وقد أتت تنفض الغبار من فوق جبينها؛ لتقبّل طفلتها، وتمسح عنها دموع القلق، لتهندم ملابسها مع وعد بضمة الحنان أثناء وجبة العشاء.

تسقط أجزاء من المباني فوق آخرين، وفوق الفتاة الصغيرة.. يصرخ الناس..صراخ امتزج بالدعاء بالصبر والقوة والرغبة في الانتقام، وما شعرت إلا بنفسي أصرخ: (لماذا........لماذا لم تأتِ؟ ما يلزمك إلا خطوات)

(لماذا أصررت.. ؟)

أسرعت إليها ما رأيت سوى وجه مغمض العينين بدون جسد دفن تحت الحجارة.

(لماذا لازمت مكانك.. ما برحْتَه؟.. أغمضتَ عينيك الآن.. ارتحتَ؟ أكنتَ على موعد مع أمك وانتظرت هنا؟ نعم هي الروح تعلم).

مسحتُ الغبار عن وجهها الملائكي، لتتخضب يدي بدموع سالت من رأسها الدموية، وتزداد مرارة بكائي، ولتختلط الدموع الحارة مع دمها القاني المتخثر، بلون ارتسم على أعلام العالم، ليُخضّب وجه العمارات والسفارات والقنصليات ومباني الأمم المتحدة،... وحقوق الإنسان.




شمع عيد الميلاد

السماء زرقاء، الشمس صفراء، والسحاب بروح النقاء، تسبح في الفضاء.. مشهد اعتاد عليه الناس، فأضيئوا وأشعلوا شمع عيد الميلاد.

يوم ميلادي، يوم جئت إلى الدنيا مسلم الكفين، مغمض العينين، رسمت على شفتي بسمة اللقاء الدنيوي، أضيئوا شمع عيد الميلاد. لنغني ونفرح الآن. وأنا أسير في بيتي الأسير، تكاد أرضيته تصرخ من وجع قدمي عليه، فكم تألمنا معا وشهدنا على ذهاب الأحباب والأرواح من هنا...من بيتنا.

فأضيئوا شمع عيد الميلاد، تشبعت بسنوات الدهر حتى كبرت عن الناس ولا تزال رغبة الحياة تجتاح قلبي، فلا أعلم هل كبرت في السن أم قلبي هو الذي هرم.

تعبت من وحدتي، ومن انتظار رحيلي مثل الآخرين، فلست وحدي من يحتفل بعيد الميلاد..جميعنا هنا نحتفل بعيد ميلادنا. فمرة هنا وتارة هناك، والآن قد حان احتفالي بإشعال شمع عيد ميلادي الكبير.

يا إلهي، لقد أضاءت السماء، فانتشيت... وها أنا.. لن أذهب، بل سأستقر في أسر مولدي إلى حرية آخرتي.....وأضيء شمع عيد الميلاد.

(كلماتُ شاب مات وحيدا أثناء حصار غزة)



الأشباح لا تفشي الأسرار

ونظرت إلى السماء، سرت.. أمشي وأمشي، لا تعب ولا ملل، وكأني أردت كسر الأرض بخطواتي، لعلي أستطيع التنفس بعد قليلا.

هي: أما زلت هنا؟!

هو: مرحبًا !

هي: كيف حالك؟

هو (مبتسماً بسخرية) : مثل باقي الأيام.

هي: إذن كيف حال أيامك السابقة؟

هو: (متعجبا)

هي: لم أرك منذ أيام ولا أعرف حالك معها.

هو: لا شيء لا شيء. الأيام تدور، والساقية تدور، نسير ونفرح ونبكي ونحزن ونشتاق للفرح، حتى نخلق سببا للفرح، كي نعلنه لنا، وننسى ونتناسى، ونكتم ونقلق، ولا نجد من نسامره، أو نطلق له مكنون أنفسنا. فننظر في المرآة، نتحدث ولا نجد حلا إلا شاشة كبيرة تكمل هي الأخرى دورها علينا، وفي النهاية ننام وعلى صدورنا حمل ثقيل لا نخرجه لأحد.

هي: وبما أنني هنا.. لمَ لا تفرج عنك وتخبرني بما يكدر صفوك؟

هو: الآن.. لا أريد.

هي: لمَ؟!

هو: هل أنا تحت أمرك؟! لا تأتين دوما بل تتركينني لأيام طوال، والآن تطلبين تقريرا مفصلا بما يكدر صفوي.

هي: أردت راحتك.

هو: إن كنت أردت راحتي، فلتسألي عني دوما، كما يفعل العشاق.

هي: أنحن من العشاق؟!

.... (لحظة سكون)

هي: إذن لا تطلب مني شيئًا. أنت تعرف من البداية أني لا آتيك دوما، ورضيت وطلبت الكلام، وأعطيتك الإنصات، فلا تطلب مني المزيد.

هو: عذرا عذرا عذرا.

أخشى.. أخشى أن أكون قد اشتقت لسؤالك عني.. يا إلهي ترى أيكون هذا هو السر كي أخرج ما في نفسي من أسرار مكنونة؟

شكرا لحديثك معي.

هي: إذن أعرف الآن أنك إن أحببت وعشقت ستفضي بما داخلك لها.. بأوجاعك وأسرارك وعقلك.

هو: وعقلي؟!!!

هي: نعم.. أولم تعلم أن الحب هو أن يقدم كل طرف عقله للآخر، وكذلك قلبه.

هو: لِمَ؟

هي: نعم يا سيدي، حتى يغدو في النهاية شخصا جديدا، وكأنه مولود جديد يحبو بخطواته الصغيرة متمثلا في كليهما، ليسيرا معًا، ويعيشا بقلب وعقل الشخص الذي اختلقاه.

هو : أنا لا أفهم ولكن الكلام يعجبني ، لم أكن أعرف أن لك باعًا في دروب الفلسفة.

هي : يا سيدي لا تهتم، إن الحياة تسير في خطوط كثيرة، ولعل العلماء يدركون فك طلاسم الشِّعاب، ولكن يبقى عقل الإنسان هو فيلسوفه الأول والوحيد .

هو :لا تخرجينا من الأهم ؟ أريد حبا وعشقا ، لكنني لا أعرف ماذا أفعل ؟

هي :سيدي منذ قليل شكرتني وكدت تودعني، ماذا تريد الآن؟! أن أهديك نفسا تحبها فتصبح أنانيًّا أم أدلك على امرأة أخرى لتصبح تابعا؟!

هو :فهمتك...فهمتك.

هي :إنها مثل الخطوات تسيرها حتى تتعثر في إحداها، حينها تدرك أن الحياة أعطتك جنتها وتتمنى الخلود فيها حتى ...

هو :حتى ماذا ؟

هي :لا شيء...لا شيء.

هو :أرجوك ماذا...... ؟

هي : أراكم في الدنيا أردتم الحب، فأهداكم الله إياه، ولكن تعاملتم معه بمنتهى الأنانية والجشع والطمع ، لا بمنطق الحب تعاملتم، ولا من الحب تعلّمتم

هو :إذن لا حب أيضا ؟

هي : لم أقل هذا .

هو : إذن ماذا ؟

هي :سيدي انظر داخلك وأصغِ إلى نفسك قبل أن يأتي شخص لتشكو له، أحيانا جلسات الإنسان بمفرده تكشف له ما يريد .. ما يحب

.. ما يكره. نفسك لك وبك قبل أن يشاركها أحد معك ، أصغ إليها ولا تحرمها الإنصات ، اعشقها حتى تهدأ وتسكن، طببها بآيات الله، وبعد ذلك انظر في المرآة كيفما تشاء، حينها لن تفكر بأنك مجنون، بل ستحب رؤية ابتسامتك .

هو : إلى أين ؟

هي : ذاهبة !

هو: إن الوقت مبكر ، لا تذهبي .. جلستك هذه أقصر من جلساتك السابقة .

هي :أرجوك لا تلحّ.

هو : (مقتربا بسرعه، ممسكا بيدها): ما هذا؟! أأنت إنسان؟! لست شبحا.

هي : ماذا؟ أخِفتَ أم غضبت؟

هو :لَم......لَم كذبت عليَّ، وأخفيت حقيقتك؟

هي :لم أرد حرمانك متعة الحديث معي ، فالشبح لا يفشي الأسرار، أما الإنسان .. فكلنا نعلم ...

هو :ولكن ......؟؟

هي : سيدي لقد تبادلنا أحاديث طويلًا وانتهينا إلى خاتمة الحديث، وأرى أن الوقت قد أصبح مناسبًا للرحيل.

هو :هل سأراك ثانية ؟

هي:لمَ ؟

هو : لا أعرف ...لا أستطيع تركك ترحلين ...ابقَي أرجوك .

هي : ماذا ؟ أشعرت بشيء يخترق قلبك بنعومة وخفة وكأنها وخزة بدون ألم ولا وجع لتسعد حقا بها؟! حتى يرى قلبك نصفه الآخر يبتعد، آه يا سيدي ، إنه يعتصر ليقطر دما، يتلوى إذ به في سكراته.

هو : لا أعرف ولكني أشعر أني أفقت أخيرا ولا أعرف سواك، ولا أريد سواك، تنصتين إلي ولا تملين من نصحي ، هذا هو الحب ولكني لم أكن أعرف ...لا تتركيني .

هي : سيدي .. عزيزي .. حبيبي ....عشقتك وأحببتك، وانتظرت حتى أسمع منك أحرفًا تحيي الأمل داخلي، ولكن دون جدوى .

حبيبي من حقي أن أنطقها ولا ألزمك بها. أتمنى لك دربًا تسير فيه لا تضل ولا تيأس، تعيش فيه بهناء، كن مع الله يا سيدي لتجد ضالتك في النهاية.



الانتظار

لا أدري ما الذي دفعني للكتابة الآن؟ أحنين لها؟ أم أن مشاعري ضاقت بصدري فاشتاقت لنسمة هواء باردة، لا أعرف، لكن كل ما أريده أن أصفها وكأنها تحرضني أو تهددني إن لم أعبر عنها. جعلتني أنا الذي أختنق بداخلها، ها هي تقف أمامي تحاول أن تتوارى عن الأنظار، وتنظر بخجل، تسدل عليها ثوبها من كل جانب، وهوى قلبها يبعثره، ولكنها ترد عنه، فتحاول إسداله مرات ومرات، تجلس متنهدة من تعب ثوبها، فتبعد بيديها حريرها أقصد شعرها، لكنها تبعده بطريقة تهذيب الأم لابنها، لا أعرف لماذا، ولكني أرى بداخلها حنانا وجمالا وإحساسا لا أستطيع أن أصفه، أراها ناعمة وهى تمشي على البساط، حانية بوضع يدها على وجهها الوردي، شاردة الفكر، بها خفة وهي تتمايل عندما تعجب ببعض الألحان، ولكن لا أعرف لماذا تخفي كل هذه الأشياء بداخلك لماذا؟...

لا أستطيع الاستمرار، ففكري بك أنهكني، وعقلي بك خاصمني، وقلبي – وآه من قلبي – جافاني، رجاء أعيدي الحب إلى قلبك، وانظري

إليّ، ولا تتوارَي فأنا ظمآن، لا يرويني سوى نظرة الحب في عينيك التي تقطر دفئا في يديك، إياك أن تمسحيها، فهي لي، كم تمنيت أن ألمس خدك الدافئ، حتى يدفئني معه.

عودي... عودي.. ولا تتوارَي.. فقد سئمتُ الانتظار.




السماء تعزف ألحان الحب

ضوضاء وأبواق... هتاف من كل جانب، عالم آخر يعج بكل الاختناق والدخان... وهناك بعيدًا في الأعلى... في مدار بعيد عند القمر دنيا لها ما لها من أنوار هادئة متقاربة، كل اختار قرينه ليتسامر معه، حتى يُؤذَن للشمس بالبزوغ.

النور: مرحبا!

قرينه: أين كنت ؟ انتظرتك طويلا.

النور: عذرا حبيبتي، منذ قليل عدت من العمل.

قرينه: هل العمل بالأسفل مرهق مثل عملنا ؟

النور: لا أظن !

قرينه: أنظر دائما إلى وجوههم المليئة بالضيق والتي يكاد الغمّ يكفنها.

النور: فما بالك إذن بنا نحن الذين نحمل أجسادهم؟!

قرينه: إلى متى سنظل نلتقي هنا في عالمنا؟ أما آن الوقت لنحيا معا في تلك الدنيا؟

النور: وهل بيدنا شيء؟

قرينه: لا تؤاخذني بسؤال يبعث فيَّ الحزن.

النور: لَمَ الحزن ؟

قرينه: على حب وعُمْر يضيع هباءً.

النور: أنسيت؟! ليس لنا عُمر.

قرينه: بل عمرنا منهم، متى كبروا هرمنا معهم ودُفِنّا معا.

النور: ماذا تقصدين؟

قرينه: أخشى ألا يتقابلوا، ألا يعرف كل منهم الآخر، وأين نحن من هذا؟! لقد تآلفنا كما تآلفت مئات الأرواح هنا مع قرينتها.

النور: ما رأيك برقصة معي؟ أتسمحين لي؟

وأضاءت السماء بأنوار تتراقص على هدى نغمات لا يسمعها إلا أصحابها.. تهدأ وتستقر رويدا رويدا.

النور: ما رأيك ؟ أهدأتِ قليلا.

قرينه: نعم.. موسيقانا رائعة، أتخيل حين نلتقي، هل ستكون أيضا لنا أنغام في عقولنا ننسجها، ولا يسمعها سوانا ؟

النور: ألا تعرفين.. إن كنا صادقين في حبنا، فاللحن نفسه سيعزف ولا ندري له نهاية.

قرينه: صدقت ؟ جميل ذلك الحب.

النور: نعم.

قرينه: لمَ شوّهوه وصوروه بالهوى ذي اللحظات المنسية؟!

احكِ لي قليلا عن أحاديثهم، أود معرفة ما يدور في عقولهم.

النور: حسنا، نحن نحذر أنفسنا من المرأة، فهي كالحرباء، تتلون بأخلاق وأفكار لإغراء فريستها، حتى تراها الأفضل من بين النساء، من عقلها حتى أخمص القدمين، وبذلك قد حِيكت الشبكة على عنقنا، ولا مفر.

قرينه: يا إلهي لمَ هذه القسوة علينا ؟!

النور: وأنتم كيف تفكرون ؟

قرينه: نحن ضعاف القلوب، ولسنا ضعاف العقول. كل ما نريده حضن يدفئنا من برودة الأحزان، وكتف تستند إليها رؤوسنا عندما تلقي الدنيا أثقال همومها علينا.

النور: أوَتعرفين .. هذا ما حذرنا منه أيضا ؟

قرينه: ما هو ؟

النور: ألا نناقشكن، فنحن المغلوبون دائما ؟

قرينه: هل سنمل من بعضنا ويسود الصمت والجفاء بيننا ؟

النور: لا أظن، إن أحببتك في الدنيا، كما أحبك الآن، فلن يعرف الصمت طريقا إلينا إلا إذا اخترناه لغة تجمعنا بين الناس بأعيننا.

النور: ماذا تشعرين حين أمسك بيدك ؟

قرينه: لا تخافي سأكون مظلتك، وأنت بما تشعر ؟

النور: بحنانك، وبحبك الذي يتخلل نفسي، لا أفيق منه إلا على صوتك يسكرني فأعود إلى أحلامي.

قرينه: متى سنلتقي ؟

النور: أريني أين أنت ؟

قرينه: هناك في البيت الصغير. وأنت ؟

النور: هنا حيث أبيت في مكان عملي.

قرينه: ما أطول المسافة بيننا!! تفصلها المحيطات !!

النور: لا تيأسي.

قرينه: حقا !! كيف ؟

النور: ادعي يا نصفي، دعواتك للرزاق الوهاب.

ومع بزوغ أشعة الشمس الهادئة، وتغريد الطيور معلنة ترك أعشاشها، يعود القمر إلى مسكنه وتهدأ الأنوار في السماء.


الشريدة

في الأشهر الحائرة الفاصلة بين الشتاء والصيف، لا تعرف ماهيتها، ولا إلى من تنتمي، لكنها مستقلة بطابعها الاضطرابي، وأظنها استنسخت من هذه الحيرة ذرات نشرتها في الأجواء، فصرنا جميعا كالأشهر الحائرة.

بشمس شبه غائمة اتخذت مخدعا من السحاب، وساترا لتستجمع قواها ليوم تال. مع (كلمتين وبس) الإذاعي، بدأ يومي الطويل بدون أن يطرف لي جفن، تعرف يدي الخطوات المتتالية من قطع الملابس إلى ما يلزم الحقيبة من هاتف ومفتاح، حتى تسبقني قدمي إلى الخارج.

أصبحت أعيش مثل الجميع في روتين بخطوات بطيئة مضجرة، تشعرك كالسجان إن رأى نفسا تواقة للحرية والركض ضرب بعصاه على الأقدام، لتهدأ النفس الشابة وتنكسر، وتتعلم أن ليس لها غير هذه الأسوار الباردة، هكذا ما زلنا حتى لا يسمح لنا بالالتفات لرؤية تقاسيم الوجه، كم تيبست معالمه كالروبوت، لا تعرف أيبتسم أم أن الحزن ملأ عينيه، حتى إن نفسك تتوجس خيفة منه، كأننا في يوم المحشر

العظيم، تسوقنا الأحلام الواهنة المتواضعة والبطون شبه الجائعة إلى المكان المعلوم، كل يستقر في موطنه.

تتوالى الأيام؛ يوم يأخذ بيد الآخر، لتمضي جميعا بسمات متشابهة.

وفي أحد الأيام استيقظت باكرا عن بقية الأيام، ولم أُدِر المذياع، اكتفيت بصوت العصافير المتقافزة على أفرع الأشجار، وكأنها تحتفل بإحيائها ليوم جديد، تعيشه بفرح دون فقد دقيقة منه، أعارتني قليلا من فرحتها، وهكذا مضيت ليومي الرمادي بابتسامة رسمت رغما عني، فتعجب الجميع (أبك مرض؟!) لكم حق؛ إن قلت إن السبب تلك العصافير وصفتموني بالجنون، وإن قلت لا، جزمتم بأنه قد تلبسني الجن؛ إذن فسلام عليكم لكم دينكم ولي دين.

تغرب رويدا رويدا ابتسامتي في خضم العمل المثقل، فتثقل عيوني من الإرهاق، جلست أرتاح مع كوب قهوة، أستجدي به النشاط المسلوب، ومع تنقل وجهي بين النافذة والأركان، تقابلت أعيننا للحظة واحدة، فأدرت وجهي بسرعة، لا أعرف لِمَ فعلت ذلك؟! وكأنه شخص أعرفه، أحاول التهرب منه، اضطربت أصابعي بجانب القهوة الباردة، وثَبَّتُّ نظري على النافذة منتظرة مغادرة الشخص المجهول؛ لأطلق زفرة كتمان أنفاسي، أظنني كنت أشبه بتمثال الشمع الذي أخذ يتصبب عرقا مع تزايد الحرارة.

استكملت أعمالي، فارقني عقلي، يسأل، ويعيد ما حدث، قابلت الكثير، لِمَ هذا خاصة ؟! أطلقت الظنون بعيدا، عدت لوحدتي الصغيرة، وبؤرة نفسي التي لا تقدر على احتمال هذا العناء.

عدت لمنزلي مساءً، شاهدت (نهر الحب)، يا لك من يوم غريب!! بدأ بغناء العصافير وانتهى بنهر ليس كأي نهر، نهر يفيض بالحب.

في صباح اليوم التالي تعمدت بقائي في الفراش، يقظة دون حراك، أسمع رفرفة أجنحة الطير، وكأنني أخشى هذا الفأل وما سببه لي من رجفة غريبة.

هممتُ بدخول مكتبي، ليَفْجَؤني ذلك الشخص المجهول، ينتظرني حاملا كمًّا من الأوراق لم أُعِرها اهتمامي، عَلَت الدهشة الصامتة وجهي، ولم أنبس ببنت شفة، لم أنتبه لما يقول حتى استجمعت سمعي وعقلي المعطل، وتبادلت معه أوراق العمل المشتركة... كم تمنيت أن يتجسد العمل في شخص، لأحقق معه وأسأله لِمَ هو؟

مضى الوقت ونحن منكبان، فككتُ أسْر لساني وجمود ملامحي، أما هو فلا أظن أنه قد انتابه شيء من ذلك، كان منطلق اللسان، منبسط الوجه، لا يخشى شيئا من الدنيا، كنت كلما ابتسمت لشيء، توردت وجنتي، ويزداد خجلي وحمرة وجهي.

أضيئت المصابيح معلنة انقضاء اليوم، على الرغم من صمودها المزيف الذي لا يغني عن الانحناءة المنكسرة العطشى للراحة.

دخلت منزلي باتجاه غرفتي مسرعة، لَمَ تملأ الفرحة نفسي؟! رحل عني الإرهاق بعد يوم مضنٍ مملوء بالعمل؛ تملكتني طاقة سحرية، فتحت نافذتي لأطل على عصافيرً أَوَت إلى أعشاشها بسلام، ذهبت إلى خِدري أختبئ به، وعيني لا تنام.

تتابعت الأيام سريعا على غير عادتها، كلما مضت تولد شعور خفي غير مصرح به، ولكننا نعلمه من تسابق الكلمات ذاتها على شفاهنا، ونظرات العيون المختلسة، وراحة نجوانا حتى نلتقي، فتهدأ أنفاسنا في شهيق وزفير منتظم إلى صدورنا.

كنت في مرحلة الغيبوبة المبصرة، أبصر ما حولي، لكني بمفردي في فقاعة، لا أسمع أحدا، لا أنتبه لما يحدث، وحدي أشرد بذهني وخيالي، فينسجان معا من أحداث الحياة حلما ورديا، أجتره مرارا ومرارا.

حانت اللحظة التي راودتني كثيرا بيقظتي، بمجرد نطق كلمة العهد المختومة على القلبين (أحبك أنت)، تجمدت أطرافي، غابت أنفاسي لم أعد أحتاج لهذا الهواء، ومحا الوجودُ كلَّ الناس، ولم يبقَ سوانا، أخذتني السماء إليها في حفلة راقصة، وعادت بي مثل وردة فضية ازداد بريقها مع تلك الكلمة.

طوقتُ نفسي بذراعي، لخلاص رحلة البحث، سكن البال أو كاد، حتى وإن لم يسكن فقد حاولت مجاراة قوة وجموح ذلك القلب الذي أفصح بسره إلي، لم أستطع الإنكار، فما غاب ألقُ القلب عن عيني.

قررت إن كان هذا الحب في بدايته، سعادة ووخز خفيف في الفؤاد، كالرضيع يتأقلم على الحبو، فلنستمتع به إذن، حتى نكتفي، فهو وقودنا لأولى خطوات الألم والاختبار الحقيقي لهذا الحب.




فراق مؤقت

عندما أسدل الليل أستاره المظلمة شملني معهم بالكآبة السوداء، أستجدي داخله بالإنارات الخارجية لعلها تنير ظلمتي.

أبدأ بسرد الخطوات المعتادة لنهاية اليوم، ألقي أشيائي، أبدل ملابسي لأتناول طعام فقدت لذته، لا أشتهيه، لكنه هو ما يبقيني حتى الآن.

بعد كل هذا لم يبق إلا شيء واحد لم أملّ منه، تتحرك قدماي إلى الحائط المقابل لسرير، ونبض قلبي يتسارع لتستقر عيناي على برواز خشبي، أحتفظ بداخله بصورة، هي مؤنسي، كم أحسدك أيتها الورقة، حملت أغلى الناس إليّ... لا بل تحملين جزءًا مني، ما استطعت أنا أن أحتفظ به.

حملتِ بين أسوارك الخشبية المزخرفة صورة لطفلتي الصغيرة ذات الشعر المسترسل على وجنتين حمراوين، وعيون احتفظت بداخلها بقطع من الليل الحالك، تزينها أهداب متراصة تماما، .. شفتاك الغضة أتذكر حركاتها.

تعبت يا صغيرتي !! كلما نظرت إليك ارتسمت الخيالات المفقودة داخلي، ليت الوقت كان لنا لأقضيه معك نلعب... نستلقي على ظهورنا.. أداعبك لتجري وتختبئي.

تمنيت لو أن هذا الليل الحزين أضاء بوجهك الملائكي وأنا جالس بقربك.

لا أعرف ماذا تفعلين الآن أو ماذا تعتقدين؟ صغيرتي... أعرف أن كلًّا منا أجرم في حقك، ولكن رحمة الله أوسع، وإن أردتِ نصب محاكمة لنا، سأرضى... حينها يتسنى لي رؤيتك عن قرب، حتى وإن نظرتْ لي عيناك بشرر من النار، وامتلأ قلبك بالغضب عليّ.

أرضى يا صغيرتي... أرضى فقط برؤيتك، لكني أعرف أن الجزء الذي بداخلك هو مني، فلا تكوني قاسية عليّ، فقد عُذِّبت، وتألمت، حتى ذبل ويبس الإحساس داخلي، صرت شخصًا بين الحياة والموت.

أنتظرك...

إن نظرتُ إلى عينيك ارتويت، ومن كلمات شفاهك أحيا .. ومن نبض قلبك المشابه لي، أنعشت الروح الكامنة داخلي، فأنت مني، وأنا من شغف عمرك البريء.

ما زال قلبي أجوفَ فارغًا ينتظرك لتتربعي فيه، وتنثري بين أرجائه سحرك، لتزدهر الروح بداخله، ويخف الأنين حتى يتلاشى.

ارتسمت صورتك وأنت تأتيني شاكية، فأحتضنك بقوة بين ذراعي، لعل ضمة ذراعي تكون شفيعا لي لديك، فترضَي عني، وتهدأ يداك الحانيتان الصغيرتان، وتنادي: (أبــي).

لا أتمنى رؤيتك كالأغراب، حينما تصيرين عودًا منتصبًا استقر شكله وملامحه ونفسه المترنحة داخله، تأتيني لتبلغيني بلقائك بزوجك المستقبلي.

لا... لا أريد أن أكون ضيف شرف في حفلة لم أرسم فرحتها في عينيك، لن أريد أن أكون يدًا صورية تسلمك للزوج، وهكذا ينتهى دوري المؤقت فأعود أدراجي.. أريد رؤيتك الآن قبل أن يمحو الزمن ما تبقى داخلي من أمل.

سأعود يا صغيرتي إليك، ولكن نصيحتي إليك...

لا تنسَي أبدا، كلما نظرت في المرآة، كلما لمست يداك وجهَك المستدار، أن هذا الوجه مني... كلما أحسستِ بقشعريرة تسري بين ضلوعك وتستقر في أذنك، أنه صوتي يوم أقرأتك أول الكلمات لحظة ولادتك العظيمة مع تلاقي أنفاس الحياة الجديدة مع وجهك البريء الناعم... كلما تساءلتِ عن مواهبك الجديدة وممن ورثتِها ...

اجعليني طيفًا يزورك في الذاكرة لعله ينقذنا من غابات الظلمة الضائعة.

وأخيرا كلما تحيرتِ في أمري، فتأكدي أن الإحساسَ وراءه حدس، والحدس القوي يتبعه اليقين...

وأنا يا صغيرتي... أنا هنا !!



واستقرت لوحتي على الجدار

في تمام الساعة الرابعة عصرا، تحرك القطار متجها إلى الصعيد، لحقته أخيرا بعد انتهائي من زيارة الطبيب، وشراء الملابس الأنيقة التي لا نجدها في بلدنا فنتزود بها، وخاصة لولدي الصغير ذي السنوات الخمس.

أقلّنا القطار، والتقطنا أنفاسنا بعد الفوز بمقعد مريح بجانب النافذة، لنتسلى طوال الطريق بلوحاتها المتغيرة، وكأنه مسلسل متغير الحلقات، نرى تعدد وجوه الناس وألوانها الخمرية والبيضاء، حتى نصل إلى سمرة الصعيد، حيث تتدرج البيوت من غرف السطوح البائسة، وما تحويه من شقاء، إلى الفيلات، إلى النائمين تحت الكباري، لا نفرق بين لون جلودهم وأرض الطريق.

دائما تستوقفني الطبيعة بكل فروقها الفريدة في شتى الأماكن فهي أيضا تقسمت لطبقات كالورود والرياحين والعصافير الغناء فوق مياه تترقرق من نوافير مزخرفة، حتى يصطدم نظرك بالأشجار العتيقة الملقاة بجانب الترع ومجاري المياه الضيقة، تبدو كالعجوز شقت تجاعيدها

طريقها بخطوط عميقة طويلة، لا تمحوها بسمة أو فضفضة كلام، فهي توثيق لرحلتها في هذا العالم.

طالبات الجامعة يلحقن بالقطار في هرولة خفيفة، تظهر من خطواتهن براءة الحياة بعيونهن، لا يحملن من مسئوليتها سوى كتاب يتدارسنه، تذكرت السنوات الخالية، فابتسمت.

أول يوم لي في الجامعة أسير وأنظر للأعلى متشوقة لكل ركن بها، حتى كدت أكب على وجهي، لم تفارقني رحلتي بالجامعة، فعملت بها بعد الدراسة، فكانت حياتي مملوءة بالحيوية، ليزينها في النهاية بحب عبقري، ثم فرقت بيننا الأيام، تهدَّمت الآمال المعقودة، وتبخر الحب ليذهب أدراج الرياح، تناثر ورد الإكليل الأبيض على شرفة قلبي المكسور ...(أأنت حزينة؟) فاجأني الصغير فاستحييت، ما لهذه الذكرى ما زالت تبكيني بعد كل هذه السنوات، ألا يكفي ما أعطيته لهذا الحب، فما بخلت عليه أبدا.

صوت عجلات القطار وهي تصطكّ بالقضبان في المحطات المتتالية، تكفي لإيقاظك من سباتك العميق، لترتاح قليلا فترشف شيئا، وتطمئن على من يرافقك.

بعد دقائق ليست بالقليلة أعلن القطار عن استئناف انطلاقه لتستقله امرأة متأبطة رجلا، أكاد أعرفها من ابتسامتها ووجهها، إنها إحدى

قريباتي تزوجت حديثا بفارس أحلامها بعد قصة حب مضنية، سعدت لها فهنأتها، غادراني ليبحثا عن مكان يسعهما، أما حبهما الكبير فلا يسعه إلا قلبهما الصغير الدافئ، ما أشجعك أيها القلب تحمل الكثير ولا تشتكي!

طافت بذهني صورة زوجي، أذكر لقائي به للمرة الأولى ببيت أهلي بحجرة الصالون المذهب الذي لا يفتح إلا للزوار والزائرات من الأهل والأصدقاء والغرباء.

رأيتك لا عيب فيك، شخص مهذب متفان في عمله، ليس ببخيل، وفوق هذا كان يحبني، لم أكن قد أَفَقتُ بعد من صدمتي السابقة، نصحني الأهل بشخص يحبني يحملني في قلبه، ولا يرضى لي الألم، يفرش لي الأرض وردا، أهنأ إلى جواره مدى الحياة. تسير سفينة حياتنا متزنة، حتى إذا شابها عائق أو كادت تميل، أسرعنا ولحقنا بها لنتابع المسير.

وصل القطار إلى منتهاه، وما زالت الأفكار تمطر في عقلي، يناديني الصغير (أمي ...أبي هناك يلوح إلينا).

أنقذتني يا صغيري من ظلمة أفكاري، أرى زوجي يلوح مبتسما، كأنها المرة الأولى التي يلقاني فيها، اقترب مني متلهفًا. زرفت عيني، ولساني يهمس (كم أنا ذات حظٍّ سعيد!).

الأُرجوحة

جلست أتأمل السماء، لا يطرف لي جفن، أزيد التركيز؛ لعله هروب من أخبار سوداء وحمراء ملأت الشاشات وضاقت بها روحي، شعرت بأنني أو بالأحرى كلنا مثل (عبيد الكورو) لنا ميراث تلك الأخبار لجيل بعد جيل، فمتى يحين إذن من يخالفنا، ولو جيلاً واحدًا فقط؛ ليتلقى الأخبار البيضاء.

أنقذتني نغمات همست إلى نفسي، فأجابت شفتي بابتسامة مقتضبة، وأصابعي تداعب خيوط الشمس، كما كنا نفعل ونحن صغار لنشعر بالقوة والثقة بداخلنا تجاه الحياة، وكانت الحياة بالمقابل لا تعيرنا أي اهتمام، وكأنها تخبرنا: لا تقلقوا... ليس الآن.

ما زال ذاك الوخز في قلبي كنبوءة العراف، حاولت الهروب منه، لكنه ما زال مستمرًا وبقوة، إلى أن هاتفني أحد الأصدقاء ليخبرني أن زوجة أستاذي المقرب قد رحلت إلى دار الخلود.

تلعثمت كلماتي، وهربت الحروف، وظهر الارتباك واضحًا في صوتي، فقد كنت الشخص الوحيد المقرب له، حتى بتنا كالأصدقاء،

فمن أحاديث النهار إلى سمر الليل وفضفضة مكنونات النفس بدون خجل، في أحدها باح لي أن حبيبته – كما كان يحب نعتها على الملأ– كانت بمثابة الزوجة والحبيبة والأم التي لم ير مثلها، وأردف قائلا: أتراني محظوظا؟! فابتسم كلانا.

أسرعت إلى منزله لأبصره جالسا على كرسي متواضع، شبه مغمض العينين، يعيش في غيبوبته، يعرج في دنيا الأرواح، وموسيقى شاجية تحفه حفيفا يؤلم النفس، جلست بجواره بصمت إلى أن يأذن بالكلام.

تمنيت لو أن إحدى الغمامات هبطت لتمتص الحزن الجلي الذي لم يقدر أن يدفنه، ولا أن يواريه كما وارى زوجته العزيزة، كلانا التزم الصمت القدسي الذي إن قطعه الكلام جرحه، وأمسى عرَضِيًّا هزليا مستخفا به.

ودعته بخجل، لم أستطع المواساة، فالحدث أعظم، ومنزلتها في قلبه لن يشفيها بضع كلمات، وأنفاسها التي ما زالت حية رطبة في الأركان لن تغادر بكلماتي التافهة، وملابسها المشبعة بعطرها الذاتي الشذي لن تنسى بوهن كلماتي، وذكريات الحياة والضحكات المخبأة بين الجدران ستظل ناقوسا يدق فوق أوتار الألم، فالعين تدرك والقلب يدرك ألَّا أحدَ يقدر على شفاء الجرح، فليأخذا الوقت كما يريدان لتهدأ النفس المضطربة الشقية، وليس لنا إلا أن ندعو له.

ظللت طول الطريق منكس الرأس، شارد الذهن، وكأن المصاب بي، خوفا على أستاذي لتلفظه بكلمات تفضح ما بداخله، وتمنيه موافاة الأجل قريبا. ألقى أحدهم بورقة في يدي تخبرني (أستطيع المساعدة .. فلا تتردد). تعجبت لصراحة القول، فأقبلت على المكان الذي حدده للقاء، إذ بشخص ينتصف الغرفة جالسا بين أضواء لا قاتمة ولا صافية، نظرته ثابته واثقة، مع ابتسامة ليست كاملة، أسرعت بسؤالي:

- كيف تساعد؟

فضح سؤالي لهفتي فأجاب: (اختبرني يا سيدي، حدثني بمشكلتك، وسترى...)

حدثته ولم أُخفِ قلقي من هواجسي:

(فهمت...أنت تخشى على سيدك من إنهاء حياته بيده، أو حتى المحاولة، ولا تسكن معه! إذن كيف تمنعه؟ أليس كذلك؟!)

- بلى !!

- إذن ستكون أنت الشيء المتغير المتقلب في بيته.

- كيف أكون هناك ؟ سيرفض ذلك.

- أنت عجول! إن تحدثت ثانية سيلتزم لساني الصمت.

- تفضل.

– قل لي: ما أقوى خصائص الحياة وتميزها؟

– ماذا تقصد؟

– إنه الإنسان، فهو المفضل فوق خصائص النبات والحيوان، والحياة مسخرة له.

– إذن ؟

– سأعطيك إحدى وصفاتي لتردد بعض الجُمل الخاصة، كي تنقلب خصائصك الإنسانية إلى شيء تستطيع به مساعدة سيدك.

– ما هي الجمل؟

– (أنا الإنسان سيد خصائص الحياة).. رددها إلى أن تشعر بذوبانك كشيء ليس بإنساني.

– ترى أيفلح هذا أم أنك تخدعني؟!

– لن نخسر من التجربة، ولكن كن بالقرب من منزله.

لم يكَد الصبح يظهر حتى ذهبت لمنزل أستاذي، أبصرته من النافذة يبكي ممسكا بصورتها الملائكية، وعيناه تجمدان ليَهمَّ باتخاذ القرار.

(أنا الإنسان سيد خصائص الحياة)..

ملأتني شحنات الإيجاب والسلب بدون أذى، لم أخشَها في تلك اللحظة، صرتُ أنا والكهرباء واحدًا، أحدثتُ شرارةً وصوتًا شديدًا،

بعد أن أيقنت بهَمّه بشرب أحد السوائل المميتة، فسقط الكوب وأجفله الحدث ولم يهمه العُطل، بل جلس يلتقط أنفاسه، ويراقب شتات الزجاج.

التقط إحداها بنظرة القاتل والمقتول؛ فتشنجت حركته بعد أن وقع على سمعه موسيقاها المفضلة، هرول لوسط المنزل مناديا باسمها، محدّقًا في جهاز تنبعث منه الأنغام بأعلى صوت، أخذ ينظر إليه متأهبًا كأنما خُيل إليه أنها ستخرج منه مرددة للأغنيات من ثغرها الوردي، هَوَى جسده هونًا وضعفًا، لم يقدر على الاستمرار، أتاه النوم رحبا مستأنسا بعد طول جفاء.

استرحت أنا قليلا... أفقت معه وقت السحر، وقت سرد الأحداث والآلام ونشوء الذكريات، ليبدأ بسرد مذكراته الخاصة معها، وأنا أراقب من فوهة القلم أحرفه الملتهبة الباكية التي إن نطقت لصرخت وتمنت لو محاها، ليريحها من وصمة الألم التي التصقتْ بها، حتى وصل برثائه إلى تفكيره الميت، فأفضتُ بنفسي خارج القلم ملطخًا الأوراق بالحبر الداكن، وتقلبت خصائصي كثيرا بين قطع الكهرباء وفتح النوافذ بمهل ليتجلى صوت الأذان نقيا هادئا...

أفقت من نومي بعد رحلة حلم طويل عسِر، أرهقني كثيرا ، تنفست الصُّعَداء لانتهائه وقبل أن أبدأ التفكير به، سبقني صوت الهاتف، فترددت في إجابته...

وأغمضت عيني

بعد مرور ساعة ونصف على انتصاف الشمس في صفحة السماء، انهمر سيل بشري يكتسي بالأزرق الداكن، كنا نحن طالبات المدرسة الثانوية، وهي إحدى المدارس البارزة بالمحافظة، كنا نملأ الشوارع والحارات الجانبية، فنعطل حركة السيارات، نحجب المحلات عن الطريق، ويعلو الضجيج بحديثنا.

ترانا بزِيِّنا الموحد مع اختلاف الوجوه وقد ملأتنا روح الدعابة والحياء ... نعم تملأ الفطرة وجوهنا إلا من نأت بنفسها عن القاعدة.

أنهيت المرحلة الثانوية ثم التحقت بالكلية التي كانت رغبتي الأولى، كان مجرد ذكر اسمها بمفرده حلماً يراودني كثيرا، عشقت حياة الجامعة قبل دخولها، فهي أولى خطوات الاستقلالية.

طالما لازمني ذلك الهاجس (يا ترى هل أقابل فتى أحلامي هناك، أم أنه ينتظرني هنا؟). يا إلهي! كم مرةٍ حلمت بك، بفتى أغزل معه عباءة الحب لتحمينا من طلقات الحقد، حب ننشده معا يرقى بنا عن دونية الغريزة.. حلمت به في يقظتي ومنامي، حلمت بالحب الذي أظهر معه مشاعري دون خجل أو خوف.

انتقلت إلى كليتي في العاصمة الأم، ترددت كثيرًا بين القطار والحافلات الفخمة للسفر كحال المغترب دائما، كانت تصاحبني في سفري بعض الروايات، وبعض الموسيقى الهادئة.

في إحدى محطات الانتظار، تلاقت عيني بعينه، لم يكن حسن المظهر فحسب، بل كان حسن السَّمْت أيضا، أرسل إلي بتحية!! نأيتُ بعيني عنه متعجبة من جرأته.

جلسنا بالحافلة فإذا به يجلس بالمقعد المجاور لمقعدي، سألت نفسي أترى ما يحدث حلم أم سراب؟ جلست أتصفح إحدى الروايات وأستمع إلى موسيقاي الهادئة ...

ـ (شغلنا يا أسطى الفيلم خلينا نفوق احنا في ميتم).

يا إلهي !! تمنيت في تلك اللحظة أن تتحول موسيقاي الهادئة إلى موسيقى أكثر صخَبًا (كم هي خادعة تلك المظاهر البراقة!!) شردت بذهني من النافذة المجاورة ذات اللوحات الطبيعية المتغيرة (كيف أعرفك؟ كيف لا أُخدَع فيك حين أراك؟)

وأغمضت عيني ...

أُفُول الكلمات

أجلس على جانب الكرسي مقوسة الظهر، بالقرب من طاولة اكتست بالأوراق البيضاء، يتنقل نظري تارة إلى الحائط وأخرى إلى الأركان نهاية بالأوراق البيضاء...لا يهدأ بصري ولا يستقر كالضبع الضارية تبحث عن فريسة تستحوذ عليها.

إن خالفَتْ عيني هذا السكون بحِيرتِها وانشغالها، وصمتي التام الذي لا تخشاه حتى الحشرات من الانطلاق بعبثها، ما زلتُ ساكنة مكاني كأني على موعد مع المجهول... أنتظره بدون أجل محدد، مُطأطَأة الرأس، وأصابعي تداعب عينيّ؛ عَلَّها تُذهب انشغالها وحيرتها.

أشعر براحة العقل وفضائه حين تخفت الكلمات من ورقة، وتتلاشى وتذهب لفضاء أوسع لم يكتشف بعد... سألت نفسي في خلواتي أين تذهب الكلمات حين تنساها عقولنا؟! ألها مخبأٌ داخلنا لا نعلمه، أم أنها تعاقبنا برحيلها إلى مكان غير معلوم؟!

تمددت بكامل طاقتي وأطلقت العنان لجسدي كي يطلق تثاؤبًا كبيرًا، لعله سبب لإغلاق فوهة الفراغ القابعة بعقلي.. تركتني الكلمات وحملت معها الصور والخيال بجعبتها دون وداع، تحاملت على نفسي،

وإن كنت أعاني صداعا وتصدعا، يزداد قوة مع بطش الهواء لجنبات العقل المسكين.

افترشت من شعري مهدًا لرأسي، أطلقت تنهيدة، بدأت بالاسترخاء أكثر مع خشخشة احتكاك الشعر الضعيف، ظلَّت الأهداب مترددةً بين اللقاء والفراق...الصعود والهبوط.

تشابهتُ والكراسيَّ الجامدةَ المبعثرة، لا فرق بيننا إلا بعلو صدري وانخفاضه وصوت أنفاسي الضعيف يصل همسًا لأذني، خشيت من صلابة الكرسي وصبره، تخيلته واقفا يتمدد بأياديه الخشبية ليزيل عناء هذا الجمود، وأبقى أمامه كرسيًّا مهملاً ليلهو هو بفترة راحته.

أقبلت امرأة، تمددت بجانبي، ضمتني بذراعيها هامسة (ألا تذكريني)، لم يهمني إن كنت أعرفها أم لا، لكني اطمأننت لضمتها ولصوتها وما يملؤه من شجن وحنين.

حدَّقَتْ بوجهي، عسى أن تساعدني كي أتذكر: (أنا من عمر هذا القلم المبكر وتلك الورقة، نشأت من باطنك، ملأتِني شجنًا وحبًا وشوقًا، التهبت منه الأسطر، نهاية بألم حارق كوى أضلعي، ثم أحييتِني بأملٍ ظل دائما معي كلهفة لقاء المطر العذب بأرض جرداء).

- بادرتها بصوت خافت: (أأنت أحد أبطال قصصي السابقة؟! أعتذر لعذابك وألمك).

– ربتت على كتفي (ليست ملامة مني، فلا تحزني لشأني، تلك حياتنا وأقدارنا، خلقنا الله العليم لنملأ خيالكم).

خجِلتُ وتمنيت ذهابها بعيدًا، كنت أنظر ليدي، وكأنها تلطخت بعبراتها التي لا تنضب، إلى أن وقعت على أطراف أصابعي صورة لشابة ملأت البراءة والحياة عينيها، وقبل التحقق من ملامحها أسرعت للتحقق من حامل الصورة.

ساد حوار عقولنا، والأعين تترجم، أطبق فمي على لساني، وجرده من حقه، وأخيرا: (يا إلهي، أنت صاحب القلب الشهيد الذي لم يذُق حلاوة اللقاء والخصام، بل وُئِد يوم مولده؟!).

ومع تزايد رجفتي، واضطراب سواد عيني، هروبا من الستار الدمعي الشفاف، أقبلتِ الصغيرةُ تحمل دُمْيَتها، وكفها الأخرى بكف أمها، لهما نفس الملامح وقسمات الوجه حتى الملابس التي اكتسحها التراب الأبيض، جلسا بعيدا يرقبان باهتمام فتاةً خجولة تُخفي حبها، وقد فضحتها عذوبة ابتسامتها وبريق عينيها وشرودها الدائم.

(علمت الآن.. هذا يوم حسابي، تأتونني اليوم لزيادة آلامي، لتستغلوا فراغ عقلي، ونذالة الكلمات الراحلة، لقد تألمت مثلكم ومعكم، وارتابتني انتفاضة عند الانتهاء من قَصَصكم، ولازمني الشرود للتفكير بكم وتنظيم كلماتكم .. أرجوكم لا تزيدونني رَهَقًا

فوق رَهَقي ... من فضلكم، رأفةً بحالي، هدِّئوا من حدة توتركم ونظراتكم التي تبدو كالسهام المصوبة لقلمي، وكأنها تريد الفتك به، لم أشأ العذاب... الألم.. الجرح .. الصراخ .. الأحزان... لمَ لا نقول إننا التقينا في مكان بعيد كالمكان الذي لجأت إليه كلماتي بعد الفراق؟! مكان لا أذكره أو أعرفه أو أستطيع معرفته، فتآلفنا واتفقنا ضمنيا بالمشاركة على وجه الورق).

- رد ذو القلب الشهيد: (لكِ أن تسعدي فخرا أننا ملكك كالعبيد والجواري، ساقنا الله إليكِ لنقوم بما خلقنا من أجله من التمثيل والحديث، وملء الفراغات بالوصف الشيق، إلى أن نصل إلى نهاية نهوي عندها من شدة الإجهاد، ونستمتع على الرغم من ذلك، لكن حيرتنا وألمنا أننا لا نعيش إلا حياة واحدة، في قصة واحدة، لا نستطيع تغييرها).

- (لا أخفي عليكم أني فكرت بنحر هذا القلم، لعل إعدامه يَشفي بعض ما بداخلكم).

- انزعجت الفتاة المليئة بالحب: (وتخسرين قواك؟! ورؤيتك لنا؟! لا أحد يستطيع رؤيتنا والحديث معنا وفهمنا ومعايشتنا سواك).

انتفض الهدهد الحكيم من فوق صفحات الورق، واستقر بمقربة مني: (أترحلين وتقصفين الأقلام بعد أن عاهدناك وتتركيننا؟! والقادمون الجدد بأحرفهم المستقبلية لمن ستتركينهم؟!)

(لا تتركي ضباب الخوف يسطر الفزع بسمائكِ، بَدِّديه بالأمل. ودعي أحباءَكِ الجددَ ينقشون ويزخرفون لوحاتٍ لطالما اشتاقت نفسُكِ إليها بعد هروبها لحقيبة المجهول في داخلك، تعرفي إليهم وابسطي لهم جناحَ التآلف، ولا تتوجسي منهم خيفة .. اتّحدِي بهم، واسطري أول كلماتِك).



ضوء القمر

وسط مسرحي الصغير في عيني، الهائل في عبئه، أكون في الصفوف الأولى، أشاهد وأكوّن أفكاري وآرائي، وأكتفي، ولا أضني نفسي كي أسردها للآخرين، فكل منا أَلَّفَ داخله شَرَكَ العنكبوت التي تصيد الأعذار والحجج لخطاه ونواياه.

مع إشراقة كل صباح، أخرج إلى الشرفة التي شابها التشقق وقطرات الندى، رسمت دموعا على جراحها، اختلست شهيقا ظننته ينعشني ويروي نفسي الخاملة، ولم يأتني إلا مختلطا بتنهد وألم، ودعوات من قلوب ذبلت من الأوجاع والكذب أيضا، كصاحب المقهى المجاور مُدِيرًا مِذياعَه بأعلى صوته ليردد أغنية أم كلثوم (الورد جميل)، أكتم غيظي وأضم شفتي حسرة على هذا الورد الخيالي الذي لم أعد أجده... لقد انقرض، وبقي التراب خفيفا جافا يخنق الأنفاس، مشبعا إما بالعرق أو الدماء.. هرولة أقدام !! اعتدنا على ذلك فلم يعد يُسمح لنا في هذا المسرح أن نخطو بسَكينة وهدوء.

يأتي المساء كالمسكِّن لهموم الصباح، لكنه لا يداويها، يُنجدني الكرسي بقربه مني، ألقي بنفسي فوقه، محاولة إزاحة التعب، أشاهد أمي تنظف الغرفة، ثم تتجمد أمام صورة كأن هناك تمثالا متجسدا فيها، يأمرها بالجلوس.

رضخَتْ راضية مبتسمة، لا يكاد يطرف لها جفن سوى فمها وذاك القرص الدائري البني بوجهها الذي لمع بسبب عبرات اختنقت داخلها. فأبي فارقنا منذ سنوات، لكنها كلما مرتْ أمام الصورة خجلتْ ألا تقتطع له من وقتها الكثير.

تبدأ خلواتها الزائفة بأغنية (أغدا ألقاك)، حدثتني أمي عن شدة تعلقها بهذه الأغنية، تخجل دائماً أن تخبرني بأنها شرارة الحب بينهما.

تهيأَتْ لجِلْستها أمام الصورة، وبعد وصول صوت أم كلثوم إلى أذنيها اتسعت ابتسامتها، وحيّت والدي بنظرة كلاهما عرف معناها، وأخذت تفضي بما داخلها، لا تكَلّ ولا تمل من الكلام، ولا من مرور الساعات، وسرد أحداث اليوم كاملة؛ تريه النظارة الجديدة، والحقيبة التي أهديتُها إياها بعيد الأم... تنهمر العبرات، لتنفذ من عينيها، وتتنهد ارتياحا لإطلاقها من سِجْنها، وتعود إلى سَجْن الباقي سريعا؛ لتختم اللقاء بقبلة على الصورة هامسة (أغدا ألقاك)!

كنت أشفق عليها، ولم أُرِد أن أثنيها عن حديثها ذي الشفة الواحدة، وإن كان مجردَ لذةٍ زائفة بمن يؤنسها، فالحقيقة أن قلبها كان هو الذي يرُدّ على كلامها وذكرياتها التي تسردها للصورة، كان قلبها يرتشف من حنينها دِرعًا يبقي هذا الحنين صامدًا.

أختي الكبرى نسخة ثانية من أمي، كلاهما وضع القلب تاجًا يسبق العقل، وكلما حاولتُ إضاءة مفتاح العقل لديها؛ ليطغى على بلورة القلب، أخفقْتُ؛ لتهاجمني أحلامها البيضاء، والفارس الذي يهيم متبركا على عتبات الحب الفضية.

لا ترى السيوف الدائرة وهي تقطع من لم يدركها ويتحاذاها، ولا ترى أن الحب تقزم عندما هرِمَتْ مصاعب الحياة وأوجاعها، على الرغم من أن هذا الحب هو المسكّن الذي يساعدنا على تحمل هذا المسرح البائس.

هربت إلى كواليسي الخاصة بغرفتي التي أدير فيها حياتي، أطلق لأفكاري فيها العِنان، أكون بطلة لجمهور ذاتي؛ لعقلي وعيني، يرددان الصدى غذاءً لشغفي وأفكاري.

اتخذتُ من جِلستي البسيطة طابعا يضفي صفة الانفراد على مسرحي الذي اقتنيته بنفسي ولي، لا تتعدى مساحته مترين .. يكفياني ويكتفيان بي.

على مقطوعة بيتهوفن (ضوء القمر) كانت أناملي تَلْتهِمُ الأقلامَ بسرعة ثائرة، أَضَعُ كلّ حينٍ لوحة فارغة أخط عليها بألوان تغاير ما خلْفَ النافذة، وحين أنتهي منها أتجرعها كؤوسًا هنيةً تملؤُني قدرة وأملاً أن هناك ألوانًا جديدة.




في الطريق

بجانب الطريق اتكأت على أحد الكراسي الخشبية التي تكاد تشتكي من وطأة الشمس الحارة صيفًا، وقسوة البرد شتاءً، جُرح إصبعي من نتوءاتها البارزة، لعلها تخبر بتلك النتوءات عن عمرها، أخذ الوقت يمر... أنتظر... غرقت بنظري في طفل ذي وسامة تختفي وراء سمرته وعرقه، يحمل إكليلا من زهور الفل، يقترب من كل سيارة تمر، يستعطف الراكب قبل السائق، أتى.. جلس بقربي يستريح، عرض علي الشراء باستحياء، اشتريت منه كي أُحيي ماء عينيه بعد أن ذبلت تحت الحرارة الملتهبة.

ذهب مسرعا إلى طريق آخر... فقابلت عيني وجه جدة عجوز، تمشي بخطى متقاربة، تخشى الخطأ والسقوط، متشحة برداء أسود، خنقت بين يديها جعبة صغيرة، ولسانها لا ينفك ينطق بكلمات لا أفهمها سوى كلمة واحدة (لا حول ولا قوة إلا بالله). أفقتُ أخيرا على زمجرة بوق سيارة، لململت أغراضي، ولا أعلم لمَ أمسك بيدي قلما وورقة طوال الوقت دون أن أخط كلمة واحدة.

حُلْم

كنا جالسين جلسة الهدوء والاسترخاء على إحدى الكراسي المهملة في الزاوية، نتبادل أطراف الحديث السهلة السلسة، نترك مجالا لضحك خفيف على شفاهنا، استمر ذلك بعض الوقت، نسينا من حولنا، مر أمامنا شخص غير مرغوب فيه، انتبهت له، كانت نظرتي نحوه ساذجة، قطعتها عين دامية كأنما تنتقم ممن ينظر إليه أو يتحدث عنه، أخفيت النظرة المخيفة في آخر عقلي، لم أرد التعلق بها، وفي لحظات مرت كالبرق الخاطف، كانقطاع مفاجئ للكهرباء، أرجع إلي عقلي نظرة الغريب، مع اختراق صوت الطلقات في أذني، واستقر البارود الأسود بعنقي مؤكدا قطع أوصال الحياة.

علا صوت المنطق الآن...الآن لا رجوع.. لا رجوع، انتهى المطاف والعين تذرف، والجفن ينسدل بتراخ مؤلم، صوت الجميع يختفي، تصبح الصورة شفافة سريالية، إلا هم... أَبصرتهم من بعيد يبكون، ينزوون في أحد الأركان، تأبى شفاهم الكلام أو الضحك، وعيونهم تظل تنزف. كم تمنيت رؤيتهم يكبرون، لأشهد الإخفاق والنجاح معا، طغى الرماد المميت فكتم صوتي أكثر وأكثر .. الأنفاس تنسحب رويدا رويدا،

والقلب يلاحق آخرهم، لعله يبقى لثوانٍ...فقط، كي أرى وجه الحبيب للمرة الأخيرة. لم أعد أسمعك.. غدا على عيني ضباب، استسلمت كل أعضائي، لم يبق سوى عقلي!!

أراك يا عزيزي، امسح عن عينيك، وانظر إليَّ لعلك تفهم ما أردت أن أقول.





رحيل

تتدافع الأقدام وتتسابق، برمال الحارات الضيقة كلٌّ يركل الكرة ليفوز على أقرانه، جئتَني ملطخَ الجلباب القصير، تسألني الغفران على ذنب تعبي على غسل الثياب في دلوي الكبير، أسهر الليالي.. أكويها لتفرح بها يوم العيد، أراقبك من بعيد، أطمئن عليك، أناديك: (لا تبتعد .. ابق هنا حيث أراك).

أخذتك العزة بالإثم... تغيب وتعود بعد تآكل نفسي أمام القلق، تبكي وتشكو لي أحد الصغار، أخرج إليه صارخة عاتبة كطير الرخ، لا ألقي بالا لمن حولي ممن اعتادوا مني الطيبة واللين والسكون، أحملك أجفف دمعك البريء فوق وجنتين توردتا من كثرة اللعب، أطعمك الحلوى، أنفض الغبار من جلبابك، أهدهدك، أرجوك بسكون من يطلب الحياة: (لا تبتعد ودعك من الأشقياء، أخاف عليك كثيرا).

مرة أخرى ذهبت عني بعيدا وأبعد، ما عدت أراك في أفقي القصير، ضمني قلبي وهدهدني، في بعدك صبَّر القلبُ نفسه وصبّرني، لعل نفسي تحدثني كذبًا .. جاء العيد، جهزت العباءة البيضاء، لتعود وأطعمك من يدي الحلوى التي ألفتها.. أطلَّت علي هواجس نفسي، تذكرني بهاجس

الرعب، هَرَعتُ لأسمع عويل الأقارب كنهر زاحف يكاد يبتلعني... يواسونني في صغير القلب الذي بعُدَ، يواسونني في العباءة البيضاء التي فقدتها، لتستقر فوق سريره المعدني الذي حافظت على استقرار عطر جسده به حتى يعود، يواسونني وهم يعرفون أني لن أعود كطير الرخ أو حتى ذبابة، انقطع لساني، عدت خرساء!! أنوح وأبكي عليك يا ولدي ... وأصابع يدي تشير للجاني.




رسالة

أحاطتني الصرخات ونداء الاستنجاد .. ثم.. لازمني الصمتُ ...

يسرعون الـخَطْوَ بحثا عن المفقود .. لازمني الصمتُ...! حملوني وتركوني

وسكتُّ، أنهكتْهم محاولات الكلام، ولفّني الصمت، لا أدرككم ولا أفهم كلامكم، أبصر أناسا غيركم، كانوا معي، أسمع همسهم وتردُّد أنفاسهم ..

دعاء قوي الكلمات يستنجد بالرحمن، عبرات الدموع .. أرى النور يصعد في أمان مبتسماً فرحًا للولدان المخلدين والكؤوس بجوار الأرائك ... سلموا عليَّ، وأبلغوني لكم السلام.

رأيتهم؛ طفل يجري ويلعب، ضحكته ضحكة البراءة التي ما أصابها سهم الغل والألم، ما زالت في عذريتها ذهبَ يقفز ويقطف التفاح اليانع، فأمالت الشجرة برأسها نحوه، تجول في الأرجاء، يمسح رأسه المبلل، ثم نظر إلي:

- (أتأكل)؟

- ولازمت صمتي ..

- لا تخف أنا صريع الهروب والحقد، أنا صريع الصمت والمُلك، أنا صريع الخوف والبحر، نبِّـئْهم أني بخير، أني وجدت الأمان عند الرحمن، لا خوف علي بعد الآن، نبِّـئْهم أني أنتظرهم، فلا يحزنون علي، بل على ظنهم أن مفاتيح قارون في أيديهم .. أدعو لكم ...

- ولازمت صمتي ... عسى أحد منكم يهدأ، لأبلغ الرسالة .. سألازمه حتى يهدأ هذا الضجيج !!




ميلاد

ساكنًا هادئًا مرتاحًا مستمتعًا سكنتُ بين الأرائك، فرضتُ سلطتي الفردية الوحيدة في المكان، هنا في أرضي سوَّرتُ بقاعي بالحديد، وملأت ثغراته بالقطران؛ لئلا ينفذ لي ما يعكر صفو نعيمي من المشاكسات الحارّة الدامية، وإن نفذ صداها إلى أذني من ثقب نسيته، ارتعدتُ وتأكد لي قراري بالسكن بعيدا وحيدا تائها مع ذاتي القريبة البعيدة.

تراءَى لي أن هذا هو الفردوس والنعيم المنتظر الباقي، على الفراش الوثير المبطن بحشوة متموجة بالزئبق المتموه تمددَتْ تلك الحشوة لتتماهى معه وضعية جسدي، فأطفو لأنسى ما طرأ على سمعي، وأعود إلى بلورتي الفضية وفكري الضئيل، لكنه يريحني، وتستقر معه أنفاسي إن اضطربَتْ أخشى الخطوات البعيدة عن هذا المكان، أخشى النفَس إن التقطه من الخارج، أخشى الاختلاط أن يمحوني وأن يمحو ذاكرتي وفكري ومنهاجي، أخشى طغيانَ الآثام والذنوب إن خطوتُ خارج هذه البلورة، أخشى المحيطين والمزاحمين وضيِّقِي القلوب، أخشى قصر بصري وجهلي بالأصل. ها أنا أختبر حياتي القادمة بحلوها وقسوتها، أخشى وأخشى تعددت المخاوف، واضطربت أنفاسي.

عدت إلى أرجوحتي المعلقة المهدهدة، كيف أترك خلوتي السرمدية، والراحة والغذاء يساق إلي كما سيق إلى السيدة العذراء في المحراب؟! لا أعرف إن أردت التجربة، ولكن البلورة أصبحت تتشقق وتبتعد عني رويدًا رويدًا، تخلت عني الأرجوحة المهدهدة، وامتلأت عيني بنور لا يختلف عن قنديلي السابق، فتمسكتُ به، وتتبعته.

فلتتمسكي بأوردة الحياة يا من بعثتِ إليَّ بالأمل، وسامحيني، فمن أجلك فقط أردتُ الخروج إلى هذه الحياة .. مسحتِ دموعَ فرحِك، وهَدْهَدتِ بكائي الشديد؛ لنبدأ معا طريقنا (يا أمي).




سجن الجسد

أتقدم إلى غرفة بيضاء لا تبعث بالأمل، أسارع الخطوات، وفي ذات الوقت أتردد، تسبقني عيناي وخفقان قلبي، وكأنها المرة الأولى!! منذ شهرين أراك هنا حبيب القلب ورفيق سيرتي، أحكي لك أعمالي وأفكاري، عسى أن يقوى عقلك على النهوض، أعرف أنك تسمعني، لعل هذا ما يبقيني أقاوم، وأتحمل النظر إلى خط مرسوم ثابت فوق لوح معدني جاف، كلاهما بارد .. اشتقت لضحكاتك.. لغضبك، أريد لهذا الدم المغذي لقلبٍ وليدٍ بداخلي أن يتدفق، لا أريد أن يأتي للحياة ولا يطعم لسانه بكلمة (أبي).

لستُ قوية.. لستُ عاقلة، لست كما تراني أنت، أريدك بجانبي ولو قعيدا أو أصم وأبكم، بنور عينيك أطمئن، وبعقلك الواعي نتواصل، تكفينا النظرات .. أفِقْ.. ولا تتركني بمفردي، أريدك في بكائي وألمي، مع قدوم الصغير أريد أن أحيا بين حياتيكما ،أضمك أحيانا إلى صدري، وأشبّكُ أصابعي بين أصابعك، لعل دفئي يُغذّيك، اشتقت لأحضانك، كنتُ إذا ما أَجْفلَتْني خفافيشُ الحياة أقوقع نفسي حتى أصل إلى نبضات

قلبك.. أسمع تلك النبضات، لُفَّ ذراعيك حولي.. ولا تتركني .. سأظل على العهد، ولن أتركك، أعرف أنك تريدني ..

أفِقْ.. أفِقْ..

يا هديةَ السماء، يا حب الحياة، أسمعُكِ وأرى صورتَكِ، وإن كنتُ لا أراك، فبصوتك الحاني المكلوم أعرف صورتك، وكم هذا يؤلمني، أتكلم ... أصرخ ...ولا يبقى الصراخ، بل يتشتت داخل ظلمات الصمت المطبق، للمرة الأولى أدركت معنى (سجن الجسد) ، إنه مخيف يا عزيزتي، أبتسم داخلي، ويخف حزني حينما تلقين نفسك داخلي، وتقبلين رأسي قبل الذهاب، أشعر بالفرحة المكسورة، لا أريد أن أعود إليك للحظات، وأفقدك بعدها، سيكون كالأمل مبتور الرأس، وإن مت مرتين ستموتين في اليوم آلاف المرات .. أتمنى لو تصلك كلماتي، ولو في أحلامك يا حبيبة الفؤاد، نامي نوما هنيئا، ولا تجزعي، وإن ذهبتُ بعيدا سيأتي الصغير مداعبا يديك وعينيك، وستملآن بعضكما بالدفء والحنان والأمل النابض.


العطر القاتل

وقفت بعيدًا عن الكرسي، مقبلةً على شرفة خضراء، زيَّنتُ صدري باللآلئ المضيئة، وضعت سوارا على رُسغي، أقبلت أنتشي من الحياة قبلة تدفئني وتحييني، ليأتيني العطر من بعيد أو من قريب مهلكًا آلاف المرات، حتى إن أردت الهروب السريع تَبِعَك العطر ليقطع العقد المضيء في سمائك السعيدة، تتناثر لآلئُ سوارك الذي أنشدت عليه أحلامك وأنغامك في لياليك الماضية، حتى صارت هي أحرفك السرية على لسانك، واختلط ندى الربيع بدمع الشتاء الرمادي، فاختلفت الفصول والأوقات، ونسينا متى...وأين...وكيف، ومضينا نتأمل الحدث في زمانه، ونمضي لحدث آخر أكثر وجعا وحسرة.

تتابعت الخطى البطيئة، وبانت أحلامنا مُتلحِّفة بخيوط العنكبوت، أُرغِمَتْ على الوأد، تراءت لأعيننا الغمامات الحمراء من أفواه الملائكة، منذرةً بارتحال الأرواح إلى سبيل لا رجوع فيه، حملقة العيون الدامعة لاذت بالفرار، فتيبست أقدامهم بموطئها عجزا وقهرا، كانوا كمن صلبوا على طريق روما، لينذروا من خلفهم بالخوف القادم...

جفَّ الدمع في مقلتينا، فباتت نفوسنا مرخية كالقماش المبلل، يُطرح مُهملاً ليجف، تكاثرت الصور السوداء، حتى وإن حاولنا طردها في خيالنا.. لنهنأ بنفَس نستعيد به الحياة بعد شهقة الألم، راودَتْه مرارا لتذكِّرَه أنه أوقع مما نراه، صرت كالجسد ذي الشلل النصفي الذي إن حاول أن يخطو خانته قدماه، كيف يسير... كيف؟ والأنصاف الأخرى في شلل كامل، وإن صرخنا من الألم، فما صراخنا وحديثنا، وكلامنا الصارخ في داخلنا فقط، وإن خرج من الرئتين، يتردّد داخل غرفتنا الزجاجية، ليعود إلينا صدىً مرًّا حنظلا .

فلكم كل التحايا المنكسة الدامعة على أرض جفَّت بعد أن كانت ملآى بالحجر البرتقالي، ولكم التحايا، للحمام الأزرق الذي شهد على الفجيعة المريرة، وتحوّل أسودَ مُنتحبًا، ولكم نرفع أكفَّنا بالدعاء... فإنّا لا نملك سواه.

كِسْرة خبز

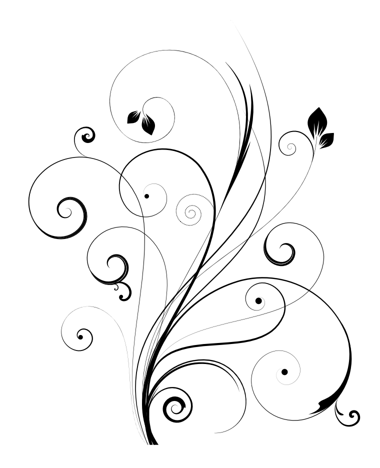
تملكني الاكتئاب، رحتُ أسير .. دفعتُ حصاةً صغيرةً بقدمي، استقرَّت عند ذي قدمين نحيلتين، أمسكها بعينين مِلْؤها الحزن .. هرولت نحوه بأسفي، قال: (لا عليك، ولكني ظننته خبزًا .. سأصارعه مع القطط)... غضضتُ الطَّرْف.. حاولتُ الكلام، بادرني قائلا:

ما عدتُ أبالي بما يُلقى إليّ، إن كان (سلام) أو (لا سلام) !




عقوق

انتظرتُـكَ طويلاً، تهلل جسدي رغم انتظاري الشاق، كنتَ على راحتَيَّ، أَبَيتُ أن تغفو عيني، وتترك أخاها، فقد عانقَتْ دمائي دِماه، يبِسَت ورقة الحياة، خيم القمر الشاقّ على رأسي.. صارت حياتي ليالِيَ بطيئة، مازال قلبي هو قلب تلك الصبية التي قبَّلت رأسَك الدافئ في أحضان أحشائي .. هرولتُ خلفك، ألقاك مبتعدًا غيرَ آسفٍ، دون قبلة على رأسي!!





في الليل

(١)

هيَّأتُ نفسي لجلسة أفضي بها عن خفاياي الضمنية الموزونة وغير الموزونة، الظاهرة فوق ابتسامة ضائعة، على جفن عين أسدلت من الألم، هيأتُ نفسي لإحياء ألم خفي، طال لسنين، أجتره.. وأجتره، حتى بدا حالكًا قاتما، يفوق ظلمات البحر، ويعود يَدْمَى من جديد، لا نهاية له، فقط نسيت بدايته، هيأت نفسي لأكشف حقيقتي الحائرة كسؤال هاملت الأسير عن إجابة استقبلت الشهداء في رحابها، هيأت نفسي أمام مرآتي، أنزع قناع الناس الملتصق بوجهي، ليتني استطعت شق الصدر، لأخرج القلب الحبيس، وأنفض عنه غبار الأيام الماضي، وآخذ أملا مَـجْدُولاً من أشعة الشمس الساقطة على شَعري، أضمد به حسرة النفس الذبيحة، أُلفُّ عليه ستائرَ الربيع الناعمة، وهي ترقص رقصة الحياة، بنسيم يداعب خصره.

فاهدأ يا قلب ولا تتنهد، فالحب والجمال يولد من رحم الألم، فأطلِق لعينيك العِنان بحثا عن حلم تحقق لأحده، وأفاقك للبحث عن

ظل الأماكن ومرآها لأحدهم حلم فيها وفرح، وتنشَّقْ عبير الأطياف السعيدة والورود المبتسمة، واجعل ضمادةَ حياتك كأجنحة طير محلقة مرسلةٍ خلفها... لتسعى إلى محياها.

***

(٢)

فنجان القهوة الصغير يتربع أمامي، لا يهدأ...لا يصبر، يطلق زفراته الشفافة؛ لتتحلل في أصداء الفضاء، وأجلس كالطفل الصغير مُصوِّبـًا نظري على الزخرفات، والورود . اللونُ الأبيضُ يعانق الذهبيّ في سعادة فقط على الفنجان، فالذهبي في عالمي إن عانق الأبيض أفاض الحياة منه، ليتربع هو على كرسي الألوان.

***

(٣)

ذهبت إلى الجدول البعيد، تهيأتُ لطقس فريد، أستمع لغناء الماء وجريانه، ليلاحق لحظات السعادة، اتحدتُ والجدولَ، اختلط ماؤه بالدماء في أوردتي بفرح القلب، ليزداد نقره الواثب، وكلانا غنى نشيدَه

إلى الجدول البعيد، وضعتُ منديلي جانبًا، استحييتُ من صوت بكاء الجدول، كان غزيرًا قويًا، طغى على جدولي أنا .. كفانا يا جدولَ الحياة، سئمت الألمَ المفاجئ، سئمت الأملَ المفاجئ .. إليك يا جدول ذهبت، نعم المياه تجري، والعشبُ على الجانبين ينمو، وحان وقت الرحيل.

***

(٤)

عقَـدْتُ زهرَ البنفسج صفوفًا فوق جبهتك القمرية، الزهر ذا الشجن الحسي، زهر بمعنى الحنين لذكريات مضت، وبقيت تنهش في الأحلام .. زهر يمضي على الخاطرة كالأمل، يبرق ويخطف الأبصار، ويضيء لك السماء كطاقة فضية، لترى واقعك وأحلامك وجها لوجه، وترسل بينهما خيوط السلسبيل، فأنت آلامي وأحلامي، ولك أطلقت غنائي، فلا تُلقِي بالعقد المرصع فوق عينيكِ، بل املئِيه أملاً من حبك الصافي، لكي يتحول لزهر الياسمين.

***

(٥)

جلستُ وحيدًا منسيًا أو وقفتُ.. لا أدري !! .. تضاءلَتْ حركاتي في محيط متضاءل، نسيت ملامحي، تتبعتها بأصابعي؛ ما لمسته كان حارًّا من مُقلَةٍ أبت أن تجفّ، لتروي وتحصد حسراتٍ زُرعت، تساوت الألوان، وتلاشت الأضواء، أصبحتْ فقط رماديةً، لا أمل..لا عقاب.. شكٌّ فقط يملؤه العذاب، خيط ضوء متقطع بخجل، يظهر لأمُـدّ إليه بوجهي، فأغتسل بنور الحياة، لعلها تروي جفاف روحي.

أصابع حركت اللاشيء، لأعود بذاكرة سمعي إلى أنغام حركات الفؤاد الكسيح، آمال وأحلام علِقتْ معي، وصُفَّت حولنا الأصفاد، نسيتُ، ووَدِدْت أن أُنسَى، كيلا يعود جسدي لذاكرة الحياة، حتى يعود الضوء كاملا كثيفا !!

***

(٦)

نسيتُ زُرقةَ السماء والغيوم المتعرجة بين الشمس والهواء، لم تنتظم خطاي على أرضٍ زاد اتساعها، شَقَّ على نفسي الوصول إليها، فتبرأت الخطوات من قدمي، لتجف الأصابع، طُرِحتُ على سرير لا أفرحني

بفرشه الوثير ولا أمدني بأمل قريب، حتى عثرت على غيمة أحلامي شاردةً، مددتُ يدي لأهزها، فتناثرت حبات البَــرَد الفتية تروي نفسي، وعادت الخطوات إلى الأرض.

***

(٧)

من دبيب النمل الهامس، إلى نقيق الضفادع البارد، والباب الأمامي يستحي من نفاذ أسهم هواء خلسةً، خيَّم الصمت بهيبته على المكان، أصبحنا ضمن عباءته، راح عقلي إلى منطقة الفراغ اللانهائية، جلبتُ المنظار الملقى بعيدا... ورافقت مسيرة النمل إلى النافذة ذات الحوافِّ النصفِ مُهشَّمة، أدرتُ المنظارَ، لتطير عيني بعيدًا، مستطلعةً أعاجيبَ وعوالِمَ لم يستقبلها العقل من قبل .. تمردَتْ عيني .. سافرَتْ .. دققتْ النظر على النفيس والرخيص، تساوَوا أمامها، فكلاهما حملَ التفاصيل، حتى الشَّق بجانب زجاج النافذة كان يحمل داخله بُرعمَ زهرةٍ ناشئًا.

***

(٨)

تمنيتُ لقاءَك، تمنيت نزولك عن جَوَاد أحلامي فأراك في أرضي، لأشعر بحبك .. خطف الأنفاس .. هروب العين إلى كل ركن خجلا من عينيك .. تلعثم اللسان ونطقه بغير الحق هروبا وسترا لما كتمه القلب. تمنيت لقاءك حتى يكاد الخصام يقطع أوصالنا، لا أستطيع مقاومة الشوق، تأبى قدماي إلا الذهاب إلى مكان اللقاء، لأراك من بعيد تمسح الدمع الخفيف.. متى اللقاء إذن؟ .. متى اللقاء؟

***

(٩)

إن صمَتَ الكونُ الدائري

وثبَتَت الصورةُ الحيةُ

واستقرت الطاولةُ فوق الأرض العارية

لم يبق سوى شيءٍ ضئيلٍ يتحرك

رعشةِ أطرافٍ مُستَنفَرَة

بأعين دامعة

وومضاتِ عقلٍ

تكاد تغادره

فلا يسعها

إثر سهم لعين مسنن بالسُّمّ

اخترق الجسد

ما خلَّف إلا غازًا

يسري كالهلاك المبين بالأوردة

ليفورَ ويعلو

بخروج الهواء الساخن

مِن رئتيك

وتبقى أنت كما الصورةِ الحية

أقول لك...

إن انتشر الغازُ المسمم

إلى شرايينك

ليخنقَ القلبَ برماده

لا تدعه....

لا تدعه يتلذذ بموتك الضعيف

تحاملتَ من قبلُ

لن تخذِلَك نفسُك

كُنْ هادئًا أمام ثورِه الهائج

وإن تشيطن

كن هادئا لتذيب عنك

كلَّ الثلوجِ السوداء

لتخرجَ نقيا

صفيًّا

لا تذكر ما حدث

ولِمَ حدث !!

تخرج كالوليد الطاهر

فقط .. لا تدعه

***

(١٠)

(تُنسَى كأنكَ لم تكُنْ)

بل لم نكن لنكون

كنا في الزوايا نحتمي

لتمحوَ معالـمَـنا

نصيرُ والحائطَ واحدًا

لا ملامحَ، لا هُويَّـةَ، لا كلام

كانت وتبقى الدموع

سَلْوانا الوحيدة

***

(تُنسَى كأنكَ لم تكُنْ)

لم تكن أيها الطفل الصغير

تحلم بذلك

جحوظ عينيك

بكاؤك الدموي

لقلب والدتك البعيد

وقد دَمِيَ حزنا وفراقا

لشفاهٍ تبسَّمَتْ لعينيك

***

(تُنسَى كأنكَ لم تكُنْ)

بل كُنَّــا

ولنا أرواحُنا وأجسادُنا

نبتَتْ من هذه الأرض

أرادوا وَأْدَنا

وتتساقط زهور الحياة

لتزينها أكاليل البنفسج

وتجرف الأرض بالحمرة

ولا يبقى لنا سوى ذكرياتٍ

طُعِنت داخلنا

وحسرةً لمن خذلونا

وراءَ البحار

***

(١١)

من سقف بيت كئيب قديم

ذي جوانب منقوشة

بالرثة والعفن

تدلى بخيط رفيع

ذو الأرجل الزغبة

صمَتٌّ...بعينين منكسرتين

طقطقت الجدران

فأحدثت ضجيجا من سقوط صخورها

واندفعت آلة تسري خلالها

صمَتٌّ...بعينين منكسرتين

ارتفعت حافة الباب السفلى

من فيضان أحمر داكن

غطى ما أمامه واكتسح

أصبح كل شئ مغطى باللزوجة

صمَتٌّ...بعينين منكسرتين

تحطم زجاج النوافذ

من وحش دخاني أسْوَد

مخلفا وراءه أشلاء

زرقاء اللون

صمَتُّ بعينين منكسرتين

رأيت غرفة ابنتي من بعيد

تهتز..تصدر صريرا بالإنذار

والدموع تداعب عيني الصغيرة

الحانيتين

والوحش يضحك من خلف الزجاج

والآلة تستعد لتسري بين الجدران

والدم يسري بعروق الطفلة

خائفًا من تدفقه على الأرض الملساء

أسرعت هنا بخطاي حزينا

لتبدأ دمعة حارة بالخروج

اطمأننت على نفسي

مازلت أملك

ما يحرك الدموع. . .

***

(١٢)

من قريب...ناجيتُك بتورية الكلمات، ومن بعيد...حاول عقلي الوصول إلى منطقك الثابت، فبنيتُ الأسوارَ أمامه، طوقتُ قلبي كعصفور مبلل، يحتمي بأوراق الشجر، حزنتُ...، وعاندتُ، وأصررتُ على تحطيم حصن الأشواك حول زمردة القلب الذي يأبى الخفقان، اختلقتُ اللقاءات و الأسباب ، ولسان حالك وفمك لا ينطق إلا بالقدر فقط، خلعتُ عن نفسي رداء الصبر، صارحتُ... بكلام مرتعش صادم، قابلتني دموعٌ خَجِلةٌ على وجنتيك، فلَجَمتَها، واتجهتْ يدك نحو العصا البيضاء، فلامس قلبُكَ كِسرَة قلبي:

- (عالمي، يا سيدتي، يسودُه الظلام والصمت والأنين، إلا من أصوات الهائجين المتداخلين).

- (بل عالمك تسودُه البصيرةُ والسلام).

الفهرس